المدخل الى الادب الجغرافي العربي الاسلامي

الدكتور خزعل ياسين مصطفى

المقدمة

شغلت الحضارة العربية الإسلامية مكانة مرموقة بين الحضارات والأمم وفي تاريخ البشرية ، وكان للعرب الفضل في تطوير العلوم المختلفة في العصور الوسطى وشقت تلك العلوم لنفسها مكانة وطريقاً سليماً وجاداً لا زالت تلك الآثار شاخصة الى اليوم ، سواء كان في الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجي والجيولوجيا ، وكذلك الآداب والفنون حيث ساهموا العرب بنصيب وافر من حيث الرقي في الفنون الأدبية والتي امتد تأثيرها الى الشعوب الأخرى وبيئات غير عربية .

فالعلوم الأدبية او العلوم النقلية كان لها الدور الواضح والتطور الملحوظ سيما في العلوم الدينية والشرعية والعقلية والأدبية ، وهناك من العلوم الأدبية التي تركت بصماتها في تاريخ الأدب العالمي بسبب تأثيراتها ، ولعل من بين هذه العلوم ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي الإسلامي ، الذي اعد من المصادر الموثوقة في دراسة التاريخ العربي الإسلامي ، حيث احتوت تلك المصادر، فضلاً عن المعلومات الجغرافية القيمة ، معلومات اقتصادية، وضحت معالم التجارة والأسواق والمال ، والتعاملات التجارية المختلفة، وكذلك معلومات اجتماعية في غاية الأهمية من حيث التعرف على عادات الأمم والشعوب وتقاليدها والعلاقات التي تربط تلك الشعوب ببعضها ، ومعلومات أخرى طبيعية وعلمية ، ولم تكن تخص بلاد العرب فحسب بل تناولت الأمم والشعوب المجاورة لبلاد الإسلام ، حتى ذهب بعض الباحثين الى جعل تلك المعلومات ،المصادر الأساسية لتاريخ بعض الشعوب في العصور الوسطى ، أمثال كراتشكوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، حيث ان تلك المصادر الجغرافية حفظت لنا معلومات تاريخية مهمة تعد المعين الأول في الاعتماد عن أخبار الأمم والشعوب ثم تدوين أخبارهم من خلال زيارات ميدانية من قبل الجغرافيين العرب المسلمين .

والذي يميز الفكر الجغرافي العربي الإسلامي الاهتمام بشطري من العلوم ، من جانب العلوم الدقيقة او العلوم العقلية ، ومن جانب آخر الاهتمام بالفن الأدبي الرائع في سرد تلك الأخبار والمعلومات ، فجعلوا الجغرافية من العلوم العقلية في المراحل الأولى ، بسبب نشأة الجغرافية في خضم التطور التاريخي لعلم الفلك والرياضيات والعلاقة الجدلية بين تلك العلوم ووصفها بلغة أدبية رفيعة المستوى .

وارتبط علم الجغرافية بتلك الفنون والعلوم ومن ثم إتباع المنهجية الوصفية في إبراز تلك المعارف ، و كانت آداب الرحلة وقصص الرحالة من الأسس التي انطلقت منها الفكر الجغرافي العربي الإسلامي والذي ميزه عن آداب والفنون لدى لشعوب الأخرى .

ان اتساع رقعة دار الاسلام ساهمت بشكل ملحوظ في زيادة الكم الهائل من المعلومات والفرص المتاحة والحرية في التنقل والرحلة لضم هذه المعطيات ، وكذلك شكل هذا الاتساع في الرقعة الجغرافية عبئاً على الدول والعلماء لإدارة البلاد واستغلال العلوم لصالح إدارة المرافق الحياتية المختلفة ، وكان علماء الجغرافية من العرب المسلمين كان لهم الدور في إبراز ومسح معالم الجغرافية من الأنهار والجبال والأراضي الزراعية والغابات بتكليف من الدولة او بجهود شخصية تتمحور اشباع رغبات فكرية ، والإطلاع على مختلف الظواهر الطبيعية وتضاريسها لمصلحة العلم والمعرفة ، ومن ثم ساهمت كمصدر اعتمدت عليها الدولة في إدارتها ومعالجة الأمور الاقتصادية ، وصدرت كتب للخراج لإعطاء الدولة المسح الحقيقي للأراضي التي تخضع للخراج وكذلك المخارج الفقهية والمعالجات الاجتماعية والاقتصادية التي قد تواجه الدولة والولاة من خلال تقييمهم لعوامل القوة الاقتصادية للبلد ورعاية مصالح العباد .

ولذلك نجد ان هناك اهتمام واضح وجلي من قبل الجهات المختلفة عند الدول والشعوب في تحقيق وترجمة الكتب ورحلات الجغرافيين العرب لدراستها والإفادة منها لدراسة الأمم والشعوب والعلوم من خلال ما تحتويها تلك المصادر ، ومرت الدراسات المهتمة بالعلوم العربية بفترات نشطة من دراسة وتحقيق وترجمة ونقد ، ولذا يحتم علينا ونحن أولى من دراسة تاريخنا وحضارتنا وتراثنا من غيرنا ، فدراسة الجغرافية تعد من الدراسات المهمة في إظهار تراثنا الى النور من حيث أصالتها ونضوجها وموقعها بين الحضارات الإنسانية .

الفصل الأول

اصول الادب الجغرافي عند الشعوب القديمة

مصطلح الجغرافية :

تعريف الجغرافية ومحتواها :

كلمة جغرافيا او علم الجغرافيا كلمة يونانية تعني صورة الأرض علم يتعرف على أصول الأقاليم السبعة ، (وينطق بها أحياناً بفتح الجيم) لم تستعمل للدلالة على علم الجغرافية إلا متأخرا، وكلمة الجغرافية أطلق على كتاب بطليموس المعروف في الجغرافية وقد فسرت كلمة جغرافيا في هذا الموضع بانها قطع الأرض[1] ، ومصطلح الجغرافية تم استخدامه عند الإغريق ايضا ولم يستخدم إلا نادراً عند العرب وفي مدد متأخرة ، واستعملت لأول مرة بمعنى علم الجغرافية في رسائل إخوان الصفا وفسرت على انها صورة الأرض وظل هذا المعنى شائعاً في العصور الوسطى[2] ، في حين استعمل قديماً على شكل مقطعين جاو غرافيا وتعني وصف الأرض او صورة الأرض وهو عنوان كتاب بطليموس (90-168م) وبالتالي فالجغرافية تعني وصف الأرض ، وذهب الإغريق على إطلاق هذا المصطلح على كل ما يتعلق بالأرض ووصفها ثم تطور الى وصف الكون لتشمل الأرض وما حولها من الأجرام السماوية[3] .

رغم الاختلاف في المصطلح ومدى استخدامه لدى الأمم والشعوب فان الإنسان قد رغب منذ القدم التعرف على الارض التي يسكنون عليها وهذا فضول طبيعي وانه بحث عن كل ما يدور حوله من ظواهر طبيعية من جبال وغابات وحيوانات ، ومنذ ان ظهر الإنسان اغرم بحب الاكتشافات ومرت هذه الرغبة في مراحل عديدة من اجل الوصول الى معارف وخبرات في ممارساتهم اليومية في التعامل مع الطبيعة والتكيف معها ، وكانت هذه المحاولات هي مراحل استقرار الإنسان والتشبث في الأرض والتعايش مع مختلف الظروف الطبيعية ، فكانت حاجات الإنسان وراء تلك الصلات والبحث عن الغذاء أولاً ومن ثم البحث عن الحاجات الأكثر إلحاحاً كالمسكن والاستقرار ومن ثم التعرف على الآخرين في محيطه[4] .

---

(1) الفندي، جمال، الجغرافية عند المسلمين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط1982،1 ، ص 11 و 12 .

(2) نفسه ، ص 12 .

(3) شاكر خصباك ، الجغرافية عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1986 ، ص 84-85 ؛ علي بن عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة التوبة ، الرياض ، 1993 ، ص 11 .

(4) عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر ، دمشق ، 1980 ، ص 13 .

منهج البحث في الجغرافية :

ويمكن ان نميز اتجاهات عديدة في منهجية دراسة الجغرافية التاريخية فضلاً عن تاريخ هذه المنهجية بان الجغرافية اعتمدت على اتجاهين من العلوم ،العقلية والأدبية ، و كان الشطر الآخر هو الأدب والفن الذي اظهر هذه المعارف ، وجمعها بشكل أسلوب أدبي مميز ، وهو ما ميز الأدب الجغرافي العربي ، فكان هناك ازدواجية في التعامل مع الجغرافية حيث اعتمد العلماء والمفكرين منذ القدم على الحساب والهندسة والفلك في ممارساتهم , وجعل العرب الجغرافية من العلوم الدقيقة او العلوم العقلية بسبب اعتمادها على المسائل العلمية في مناهجها ودراستها وممارساتها ، لذلك نشأت منذ وقت مبكر الجغرافية الفلكية الرياضية ولذلك كان هناك تأثيراً واضحاً بالعلوم الهندية واليونانية من خلال اتصالاتهم مع الشعوب ، وأما التأثير الأدبي والفني جاء من خلال الجغرافية الوصفية ولاسيما الأسلوب القصصي للرحلات المختلفة وتدوين معلوماتهم بأسلوب أدبي مميز ومحتويا على المعلومات والقيم العلمية الدقيقة[1] ، وغزارة المعلومات ، والذي غلب على المنهجية التداخل بين الأدب العربي الجغرافي والعلوم العقلية في أجزاء وممارسات الجغرافية ، فرض على المهتمين بعلم الجغرافية والعلوم العقلية والأدبية معرفة منهجية متكاملة لكي يؤهله ان يعطي فكراً جغرافياً رصيناً ذو تأثير واسع ورصين[2] .

وان التعرف على التراث الجغرافي العربي ودراسته ومعرفة منهجيته يقتضي معرفة ومكانة التطور التاريخي للفكر الجغرافي العربي والمراحل التي مرت بها ، فمن المعروف ان المعارف العربية قبل الإسلام كانت محددة ومنحصرة على جوانب كاللغة والشعر والأنساب التي تمثل الجانب التاريخي لكل قبيلة ، ولكن الطبيعة التي كانوا يعيشونها فرضت عليهم معرفة مكان سكناهم ، أي الجزيرة العربية ، كمعلومات وممارسات فلكية ووصفية ، فتنقل العشائر بين أقسام الجزيرة كان يقتضي معرفة واسعة بالمسالك والطرق ومعرفة مفاتيح الصحراء ومختلف تضاريس الأرض لتحقيق أهدافهم المختلفة[3] .

ومصطلح الجغرافية هو مصطلح لم يستخدم عند العرب قبل الإسلام وإنما استخدموا محله في العصور الإسلامية مصطلح صورة الأرض او المسالك والممالك ما عدا المتأخرين مثل ابن سعيد المغربي استخدم مصطلح الجغرافية في حين انه مصطلح قديم وبالتالي فالجغرافية عند العرب تعني وصف الأرض واخذ منها مصطلح الجغرافية او علم الجغرافية ،

---

(1) كراتشكوفسكي ، يوليانوفتش ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، ص 18 ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1957 ، ص 18 .

(2) نفسه ، ج1 ، ص 18 .

(3) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 5 .

بينما كان مستخدما لدى الإغريق وقصدوا بها وصف كل ما يتعلق بالأرض ثم تطور إلى وصف الكون[1] .

بدايات الفكر الجغرافي عند الإنسان القديم :

يقال ان الإنسان جغرافي الطبع مثلما هو مدني بالطبع ويعني ذلك ان الإنسان يحاول ان يسأل ويستفسر عن المظاهر الكونية المحيطة به وسر تلك التغيرات والأحداث الكونية من كسوف وخسوف وتعاقب الليل والنهار والمد الجزر ، كلها أسئلة أراد الإنسان ان يسأل عنها والذي ساعده على إثارة هذه الأسئلة هو الحصول على الغذاء .

فمنذ أقدم العصور منذ مرحلة الصيد كان الإنسان يسير في الأرض بحثاً عن طعامه سواء سكن البر او بالقرب من البحر ، وبعد ان استقر وجد الحيوانات ومارس الزراعة ،كلها تطورات كانت محورها الحصول على الغذاء تَطَلب منه ان يحاول وان يفكر في هذا الكون وتقلباته لاسيما ان التطورات التي تحدث على الجو تحدث خلال فترة قصيرة جعله يفكر فيها ، وهذه التغيرات جعلت الإنسان يلجأ إلى التحليل العام وهي وسيلة للإجابة على الأسئلة التي أثارها وكان يسودها الخرافات والأساطير الوهمية .

وان الإغريق وفي فترات سابقة للميلاد (700 ق.م) اعتقدوا ان الأرض هي التي تنتج ، ويتولد عنها السماء والمحيطات والجبابرة وكبار الآلهة ، أي انها وجدت قبل نشوء الخلق ، اما القبائل الاسترالية فكانت ترى ان الشمس بعد ان تضئ العالم تذهب إلى وادي سموه ، هم والإغريق مثل هوميروس ، بوادي الظلمات لان الإنسان لفترات طويلة اعتقد ان الأرض ثابتة والشمس هي التي تتحرك بفعل المشاهدات اليومية ومن جملة هذه الأساطير اعتقدت ان الشمس تذهب إلى هناك ولا تضئ لهذا الوادي لأنه مقر الشياطين ومن يغضب عليهم الآلهة وتسير في الوادي حتى تخرج منها في الطرف الآخر من الشرق .

الجغرافية عند البابليين :

ارتبط البابليون في التجارة مع البلدان المحيطة بهم وكانت الجزيرة العربية في مقدمتها بسبب امتداد الطبيعة الجغرافية مع العراق ووصلوا بتجارتهم الى سواحل الهند وافريقيا حتى بلغوا مضيق جبل طارق ولسعة اراضي المملكة فتحت امامهم مجالات واسعة للتجارة والقيام بالاسفار الى

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 12 .

اجزاء من الامبراطورية والى دول جمعتهم العلاقات السلمية واعتمدوا على النجوم **في الاهتداء** الى الطرق والمسالك التي توصلهم الى اهدافهم المنشودة .

وتتلخص فكرة البابليين حول الجغرافية وكما بيّنها شريف محمد شريف[1] :

1. كان العالم في نظر البابليين كله داخل قبة السماء التي اعتقدوا ان لها أعمدة فيما وراء البحر .
2. اعتقدوا ان الأرض فجة غير ناضجة اذ جاء في أساطيرهم ان الأرض قفة مقلوبة طافية .
3. واعتقدوا على ان الأرض سبعة طبقات .
4. وان الأرض تختفي ليلاً خلف الجبال العالية في شمال الأرض .
5. واعتقدوا ان لكل مدينة او إقليم لها سماء مستقلة بالنجوم والكواكب التي لها علاقة مع خطوط تلك الشعوب .
6. وعرفوا الكواكب ولاسيما عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل واعتبروا هذه الكواكب هي المسيطرة في قوة وحركة الناس[2] .
7. حاول البابليون وضع خرائط على الواح الطين وتعد من المحاولات الاولى في رسم الخرائط مما يدل على قدرتهم في جمع المعلومات الجغرافية وترجمتها رغم استخدامهم الوسائل البدائية .
8. كما تمكنوا من تسجيل ظاهرة الخسوف والكسوف ومعرفة مواقيتها في رصد حركات الاجرام السماوية .

الصينيون والفكر الجغرافي :

ان الموقع الجغرافي وتنوع تضاريس الأرض في الصين جعلت من الصينيين ان يتميزوا في استقلالها بشكل امثل ، وكان لهم الدور في تطوير الطرق والزراعة والري وتربية الحيوانات مما نذهب الى الاعتقاد انهم مارسوا الفكر الجغرافي من خلال تحقيق تلك الأهداف ، وتعاملوا مع دول الجوار على نفس النهج بالدراسة وفتح العلاقات التجارية وكان لبضائعهم وخاصة تجارة الحرير قد وصلت الى ابعد بلدان العالم آنذاك ، وليس أمام الباحثين مصادر تذكر متى بدؤوا في

(1) شريف محمد شريف ، تطور الفكر الجغرافي ، نقلا عن الدفاع ، أعلام الجغرافية ، ص20 .

(2) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 21 .

دراسة الجغرافية بشكل محدد الا ان المؤثرات الخارجية من الحضارات البابلية والمصرية واليونانية قد ساهمت في تحفيزهم الى دراسة علم الجغرافية بجدية .

وسادت الأفكار الجغرافية والأساطير على نظريات وآراء علماء الصين لأنهم ظنوا ان الأرض مربعة الشكل ورسموا خريطة على شكل مربعات وظلت هذه الخرائط سائدة لديهم حتى أوقات متأخرة ، ولهم محاولات عديدة في قياس أبعاد الأرض ما بين الشمال والجنوب ومرة أخرى قاسوا الأرض من الشرق الى الغرب ووجدوا ان أبعاد الأرض هي (84.000) ميل .

وبدأت حركة الانفتاح نحو الأمم الأخرى في القرن الخامس الميلادي حيث أصبح لديهم علاقات دبلوماسية مع بلاد فارس وبذلوا الطرفان جهود كبيرة في تواصل العلاقات التجارية والدبلوماسية وتبادل السفارات ، وأثمرت جهودهم في الجغرافية الى معرفة قارة آسيا بالشكل الكامل ووصلت تلك الاتصالات حتى وصلت الى شمال أفريقيا[1] .

المصريون القدماء :

أهتم المصريون القدماء من خلال الكشف عن مدوناتهم اخبار علاقاتهم التجارية والسياسية والحربية والتي اوضحت عن اهتمامهم وقدرتهم في انجاز تلك المهام اعتمادا على مداركهم الجغرافية وكان لهم جهود كبيرة في اكتشاف مناطق خارج حدود بلادهم .

وقاموا برحلات عديدة بغية الاستكشاف ، كما أرسل المصريون بعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة سيناء وكان لهم الدور في استيراد خشب الأرز من لبنان لصناعة السفن والرحلات البحرية الداخلية داخل بحر الأحمر .

وكان النشاط الاقتصادي والتجاري متطوراً لدى المصريين القدماء وهي الفترات التي عاش فيها فراعنة مصر تعود الى سنة (3500 ق.م) وبانت هذه الأنشطة من خلال الآثار التي تم كشفها في المواقع الاثارية في مصر وتمتعت بنظام إداري متطور حتى دفعت بهم الى التوسع نحو السودان وأثيوبيا اذ حصلوا في عهد الفرعون سنيفرو على أربعين سفينة مشحونة بالأخشاب من شجر الصنوبر جلبوها من الجبال اللبنانية .

وكذلك سمحت لهم هذا التطور الاقتصادي الى الارتقاء في نواحي الحياة المختلفة مما شجعتهم الى إخراج البعثات نحو الصحراء الشرقية واكتشاف منابع النيل وتتبع البحار المجاورة لهم لإغراض تجارية وملاحية ، واكتشافات تلبي رغباتهم لمعرفة المزيد من أخبار الأمم والأراضي التي لم يكتشفوها[2] .

---

(1) المرجع نفسه ، ص 32-33 .

(2) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 32-33 .

الكريتيون :

منذ نشأة الحضارات المختلفة على الكرة الأرضية كان هناك برابرة والمجتمعات المتحضرة والشعوب الأوربية كانت ضمن الفئة الأولى وهم البرابرة المتخلفون ، بينما كانت الحضارة في مستوى عالي في حوض نهر النيل ونهري دجلة والفرات ، اما الكريتيون وهم شعب من جزيرة كريت ، منهم كانوا مع غالبية الجزر اليونانية شعب لهم الخبرات في النشاط الملاحي والتجاري وتبين ان دورهم كان قد سبق الحضارة الفينيقية التي ظهرت على الساحل الشرقي للبحر المتوسط .

وشعب كريت عاشوا في البحر المتوسط واحتفظوا بالعلاقات التجارية الواسعة فقد اخضعوا الى ملك هو مينوس كما نقلت لنا الأساطير اليونانية أخبارهم في الحضارة والملاحة وصناعة السفن بحكم موقعهم التي فرضت عليهم التعامل مع البحر والتفنن في فنون الملاحة ورغم الغموض التي تلف جوانب كثيرة من حياتهم فقد احتفظوا بعلاقات تجارية مع المصريين القدماء ثم صقلية وايطاليا من دون حسبان المخاطر لتي تنجم عن أسفارهم البحرية[1] .

الفينيقيون :

هم شعب استقروا في سواحل الخليج العربي ومن ثم على ضفاف السواحل الشرقية من البحر المتوسط واهتموا كثيراً بصناعة السفن لتوفر الأخشاب الخاصة، بذلك أصبحوا بحارة واقتحموا البحار للتجارة ومحاربين للدفاع عن أنفسهم ، واستنادا على رواية هيرودتس نجد ان أول حملة اكتشافيه هامة تمت على أيدي الفينيقيين واستطاعت ان تدور حول إفريقيا بعد ان انطلقت من البحر الأحمر وعادت عن طريق البحر المتوسط إلا ان قلة التفاصيل حول هذه الرحلة مما دفع ببعض المؤرخين بالتشكيك في هذه الرحلة[2] .

فقد شكل البحر المتوسط عنصر جذب نحو الملاحة وإقامة الموانئ وصناعة السفن ، فقد لعبت عوامل عدة لممارسة هذا النشاط ، أولاً كان الموقع الجغرافي يمثل احد ابرز العوامل التي دفعت بهم نحو التعامل مع البحر لسكنهم على الشريط من السواحل اللبنانية والمحصور بين جبالها ، وثانيا كان العامل الطبيعي لوجود الأخشاب في جبال لبنان ولاسيما شجرة الصنوبر او الأرز وهي أخشاب تمتاز بالمتانة والغلظة والطول فضلاً عن احتواءها على مواد شحميه تمنع تسوس الأخشاب التي تستعمل لصناعة السفن[3] ، وثالثا لعبت التفاعلات الحضارية ما بين حضارة أهل كريت مع المصريين وكذلك مع جزر اليونان وأصبحت هذه الخبرات التي

---

(1) عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 17 .

(2) عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 18 .

(3) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 23 .

اكتسبوها من خلال تعاملهم مع الأمم خير وسيلة للتطور والنمو باتجاه النشاط الاقتصادي والتجاري مع مناطق بعيدة ، وهكذا أصبحوا أهل البحر ورجال أقوياء وظهور طبقة منهم خاضوا غمار البحار في ابعد البقاع وتمكنوا من إقامة المستعمرات التجارية في جزر بحر المتوسط وحصلوا على المواد الأولية التي تدخل في صناعتهم حتى وصلوا اسبانيا وكل جزر المتوسط ، وقد نقلت لنا روايات هيرودوت أخبارهم بشكل مفصل ، وقد ساهمت صلاتهم التجارية مع مصر الى ان جهز الفرعون نيخاوس الذي حكم مصر النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد السفن القيام بالرحلة حول أفريقيا حيث انطلقت من البحر الأحمر وعادت عن طريق البحر المتوسط ، واستغرقت هذه الرحلة الدائرية مدة عامين وهناك معلومات كثيرة نقلت هذه الرحلة حتى باتت تدخل ضمن الأساطير وهناك من الدراسات من شكك بهذه الأخبار إلا انها تدل على مدى تطور الفكر الجغرافي لدى الفينيقيين والمصريين القدماء حتى دفعت بهم التعاون من اجل كشف المزيد من الأراضي والبحار لغرض التوسع في التجارة والتعرف على الأمم والشعوب الأخرى .

والفينيقيون كانوا يكتمون الأخبار عن رحلاتهم وحرصوا على عدم اطلاع الشعوب على هذه الأسرار والهدف هو احتكارهم للطرق التجارية والممرات البحرية فراحوا يشيعون الأساطير والقصص الخرافية والمخاطر والأهوال حول رحلاتهم لإدخال الخوف في نفوس البحارة وعدم الخوض تلك المخاطر في البحار[1].

علم الجغرافية عند اليونان :

استوطنوا اليونان في منطقة هلاس (Hallas) لذلك أطلق عليهم قديماً باسم الهلينيين وموطنهم الأصلي تعود الى جزر بحر ايجة واليونانيون أورثوا علوم مختلفة عن حضاراتهم السابقة ومثال على ذلك طاليس المالطي (624–545 ق.م) الذي اخترع المزاول الشمسي وهو يعد من أعلام الفلسفة وعلم الهندسة .

وكان للعالم اليوناني هيكايتوس (550–425ق.م) الدور في تطوير علم الجغرافية الذي يرى ان آسيا للفرس والشعوب الأخرى وأوربا فبلاد اليونان ، اما أفلاطون (428–348ق.م) الذي يرى ان جميع الكواكب ثابتة والذي يتحرك الفلك الحامل للكواكب ، وبطليموس (90–167م) صاحب كتاب الجغرافية وكتاب المجسطي اللذان يحتويان على معلومات جغرافية التي توصلت اليها مجموعة علماء اليونان في الجغرافية .

---

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 23–24 .

وعلماء اليونان يعتبرون أوائل من طوروا علم الجغرافية بكافة بروعه الأساسية وكانت الجغرافية عندهم تنقسم الى قسمين رئيسيين :

1- الجغرافية الفلكية :

وهي تخص بدراسة موقع الكرة الأرضية من المجموعة الشمسية ومعرفة المسافات على الكرة الأرضية وخطوط الطول والعرض وحركة الأرض وخصائص فلكية أخرى .

2- الجغرافية الوصفية الإقليمية :

كانت تختص بوصف البلدان والأقاليم ، وتقدمت الجغرافية عند اليونان بشكل ملحوظ ولاسيما في القرن السادس الميلادي ، حيث درسوا المناخ وتأثيره على النباتات والحيوانات لذلك قسموا الأرض الى ثلاثة مناطق مناخية ، الشمالية الباردة والجنوبية الحارة والمعتدلة الحرارة في الوسط ، وكذلك عرفوا خط الاستواء بالشديدة الحرارة وعدم صلاحيتها للعيش ، ودرسوا النجوم واستفادوا منها لمواقيت الزراعة والتجارة .

ونجحوا اليونان في رسم الخرائط للمناطق التي عاشوا فيها وأنهم أسسوا علم فن رسم الخرائط وتقوموا فيها لذلك تعتبر الخرائط اليونانية النقطة الأولى لرسم وفن الخرائط عند الإنسان[1] .

الإغريق :

كان لإشعار هوميروس المعروفة بمجموعة الإلياذة الدور في توضيح معالم الإغريق في معارفهم في الجغرافية وامتدت نفوذهم الى سواحل مصر وليبيا وبلاد فينيقية ، وهناك تأثير أو ربما استقاء لبعض الظواهر والأساطير من حضارة الفينيقيين وكل الشعوب كانت تتصور ان الأرض على شكل قرص دائري مسطح ويحيط به النهر الكبير او المحيطات .

في مقدمة الأسباب التي دفعت بالإغريق في معرفة الجغرافية ومجاهل البحار هو رغبتهم من استكشاف البحار وكثرة أسفارهم البحرية فضلاً عن ممارستهم للزراعة والمهن الأخرى وكانت المستعمرات الإغريقية المنتشرة على سواحل البحر المتوسط الدافع في معرفة الشعوب والأمم ومعرفة أخرى امتدت الى أواسط أوربا للتعرف بالقوافل التجارية القادمة من بلدانهم .

هيرودوت احد الرحالة الذي قام برحلات نحو بلاد بابل وفينيقية ومصر وبرقة إلا انه كان يجهل الكثير عن بلاد العرب وكان يعتقد ان بلادهم تقع الى الجنوب وهي نهاية الأرض ولا

---

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 35-38 ؛ حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 30 .

توجد بلاد أخرى وكما زار غالبية المستعمرات لدى الإغريق سواحل آسيا الصغرى وبحر ايجة وصقلية وجنوب ايطاليا[1] .

فتوحات الاسكندر المقدوني :

رغم المحاولات المتعددة التي بذلت من قبل رجال الجغرافية عند الإغريق إلا ان معلوماتهم كانت محددة لا تمتد ابعد من مستعمراتهم وبعض السواحل التي كانت تصل سفنهم اليها إلا ان فتوحات الاسكندر أحرزت تقدماً ملحوظاً في معرفة الجغرافية والاكتشافات المهمة فامتدت الفتوحات حتى وصلت الى الأراضي الهندية وسواحل الخليج العربي ومن ثم شمالاً حتى وصل الجبال الثلجية في وسط أوربا فكانت هذه المعلومات تكشف لهم عن عالم آخر يختلف عن حياتهم بكل التفاصيل الجغرافية وعالم شديد الاختلاف ، واستمرت وتوثقت أكثر عند الذين اخلفوا ألاسكندر بعلاقاتهم التجارية امتدت الى معظم الشعوب والحضارات المتجاورة لهم .

وأصبحت مدينة الإسكندرية التي أسسها ألاسكندر المقدوني عام (332 ق.م) مركزا للدراسات العلمية ومكتبة شهيرة ، واحتلت الجغرافية مركزاً مهماً بين تلك العلوم ، وكانت نقطة انطلاقة نحو الاستكشافات الجغرافية بشكل علمي واستثمرت لتكوين علاقات تجارية مع الهند ومعرفة سواحل افريقية أكثر دقة ومعرفة ، واستغلوا جميع الممرات المائية والتيارات الهوائية معرفة علمية بحيث سهلت لهم سلوك الطرق السهلة والسريعة في الوصول الى أهدافهم سواء كانت تجارية او دبلوماسية ، فكانت الرياح الصيفية تدفع سفنهم باتجاه الهند والرياح الشتوية تؤمن لهم العودة الى بلادهم مستغلين معرفتهم الدقيقة لأوقات هبوب الرياح ، وكذلك أصبحت لديهم معرفة بالجزر المنتشرة في البحار والمحيطات لتكون محطات تجارية واستراحة لرحلاتهم التجارية[2] .

واشتهر بطليموس وهو احد علماء الإغريق في معرفته الجغرافية الحسابية واهتم بحساب درجات وخطوط الطول والعرض فوصلت المعلومات الجغرافية طبقاً لعلوم بطليموس الى سواحل الصين وسواحل بريطانيا ، وفي داخل إفريقيا وصلت معلوماتهم الى البحيرات الكبرى في المنطقة الواقعة جنوب السودان[3] .

---

(1) سيد مظفر الدين ، التاريخ الجغرافي للقرآن ، ترجمة عبد الشافي غنيم عبد القادر، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1956 ، ص12 ؛ حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 20-23 .

(2) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، دمشق ، 1973 ، ج1 ، ص 370 ؛ السيد عبد العزيز سالم ، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والتراث ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1992 ، ق1 ص351 .

(3) حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 23-24 .

الجغرافية عند الشعوب الأخرى :

كان للهنود اهتمامات واضحة في علم الفلك الذي يعتبر الركن الأساسي لعلم الجغرافية عند القدماء ، واهتم علماء الهنود بالجغرافية من خلال دراستهم الفلك والرياضيات ولا ننسى ان الخرافات والشعوذة والسحرة والعاملون على علم النجوم كان منتشراً في الهند بشكل كبير ، واعتقدوا الهنود ان الأرض هي على شكل سبع كرات ترتكز واحدة على الأخرى ، بينما الفرس كانوا يعتقدون ان الأرض مسطحة ، بينما اعتقد آخرون منهم فكرة كروية الأرض[1] .

عاشت أمم وحضارات أخرى الى جانب الحضارات الإغريقية والرومانية والعربية في معرفتهم بالعلوم والمعارف وكان لهم الدور الواضح في العلوم الجغرافية وكل امة وحسب ممارستها وطريقة تدوينها للمعلومات ، فالهنود من الأقوام الذين لهم باع طويل في علوم الفلك بالجغرافية والرياضيات وكل هذه العلوم دخلت ضمن سياق الجغرافية وممارستها لذلك انتقلت المعرفة الهندية الى العرب سواء كان قبل الإسلام او خلال الفتوحات الإسلامية ، إلا ان مدة مد الفتوحات الإسلامية باتجاه الشرق ودخول الشعوب الشرقية الى الإسلام وعاشوا تحت ظل الدولة الإسلامية بكل حرية وأمان ، تفاعلوا مع العرب و ساهموا في نضوج الحركة العلمية والفكرية في جميع المجالات ، وتم التعرف الى الفكر الجغرافي عند الهنود في القرن الرابع الهجري ولاسيما بعد تطور حركة الترجمة للكتب عن الأمم المختلفة تم نقل أمهات الكتب الأجنبية الى العربية منها الرسالة السنسكريتية (سوريا سنهانتا) في عهد المنصور، و كان المؤثرات الهندية واضحا بعلم الهيئة والجغرافية بل كان الأساس في تأليف عدة كتب منها (كتاب الزيج) لإبراهيم بن حبيب الفزاري و(سند هند الصغير) لمحمد بن موسى الخوارزمي و (السند هند) لحبش بن عبد الله المروزي البغدادي (النصف الثاني من ق 3 الموافق القرن 9 م) [2] . فضلاً عن كتب أخرى كثيرة بعد ان أصبحت المدن الإسلامية مراكز علمية استقطبت كل العلماء والمؤلفين من مختلف أقاليم الدولة الإسلامية .

وهناك ثمة شواهد تشير الى وجود مؤثرات إيرانية أثرت في الجغرافية عند الشعوب الأخرى وفي علم الجغرافية ورسم الخرائط عند العرب في العصر الإسلامي[3] ، ولا نستبعد ان يكون هناك تأثيرات وتبادل معلومات من خلال التبادل التجاري بين العرب والإيرانيين الفرس بحكم تجاور الشعبين واتصالاتهم المختلفة سواء كانت تجارية او دبلوماسية او حتى فترات

---

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 27-28 .

(2) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 91-92 .

(3) المرجع نفسه ، ص 94 .

أزمات وحروب جعلت من الطرفين دراسة أوضاع كلا الشعبين وحضارتهم والاهتمام بعلومهم وتدخلاتهم عبر العصور المختلفة .

الرومان :

تمتعت الدولة الرومانية بموقعها الجغرافي المتميز ووقوعها على البحار كالبحر المتوسط وامتلاكها الجزر المهمة التي ساهمت في تطوير التجارة الدولية من خلال الموانئ الكثيرة المنتشرة على سواحلها الواسعة وساعدتها قوتها العسكرية في توسيع رقعة البلاد وامتلاكها المصادر للمواد الغذائية والأولية في الصناعات وبهذه القدرات استطاعت ضم معظم العالم القديم آنذاك .

ويضاف الى تلك العوامل ان الرومان كانوا قد ورثوا العلوم عن اليونان وكان الفكر الجغرافي من العلوم التي نالت الحظوة عندهم لارتباطها بالمصالح العامة للبلاد , وفي مقدمة المهتمين بعلم الجغرافية أسطرابون(strobo) وهو يوناني الاصل عرف بعلمه في الجغرافية وله من الاعمال مكون من 17 مجلدا , وعرف ايضا بليني (pliny) اذ انتج عملا كبيرا في الجغرافية مكون من 37 مجلدا , وأشتهر ايضا مارينوس الصوري (marinus tyre) وكان علما في الجغرافية الى جانب الرياضيات وتعد مؤلفاته من المصادر المهمة في علم الجغرافية .

الأقاليم السبعة :

وهي منهجية اعتمدها العلماء منذ القدم لدراسة الارض عن طريق تقسيم الارض الى اقاليم او سبعة اجزاء حسب موقعها على درجات خطوط العرض , وأول من صنف هذا العلم هو بطليموس احد علماء وأعوان الاسكندر المقدوني صاحب الحضارة الهيلينية وامتد من المحيط حتى الهند وكان ابرز قادته بطليموس وسلوقس اقتسموا أملاك الاسكندر بعد وفاته فأخذ بطليموس مصر واخذ سلوقس سوريا وكان بطليموس فضلا إلى كونه قائد عسكري كان عالم في الجغرافية والفلك وأول من استخدم مصطلح الجغرافية وسمى كتابه باسم (الجغرافية) , هذا الكتاب ترجم إلى العربية في عهد المأمون إلا انه لم يصل الينا وضاع ما ضاع من التراث ، ورسم خريطة العالم وحسب تصوراته وتم ترجمة كتبه في العصور الإسلامية الأولى[1].

وألف كتاباً آخر اسماه (المجسطي) وهو ابرز ما كتب في عالم الفلك ويتكون من (13) مقالة وترجم بترجمتين اولها الترجمة الهارونية من قبل محمد بن إبراهيم الفزاري والترجمة المأمونية واستفاد العرب منه بالدرس والشرح .

(1) سيد مظفر الدين ، التاريخ الجغرافي ، ص14 .

هذا العلم قصد به دراسة الأقاليم السبعة المعروفة آنذاك وظلت حتى عهد المسلمين والمسعودي في مروج الذهب اتخذه منهجا وكذلك وصفها الخوارزمي في مفاتيح العلوم وصورها ، واعتبروا ان الأرض تتكون من سبع أقاليم وتشمل إقليم الهند وإقليم الحجاز والحبشة وإقليم مصر وأفريقيا وإقليم بابل والعراق ويقول المسعودي بأنه ينتسب إلى هذا الإقليم ثم إقليم الروم ويقصد به أرمينيا وقسطنطينية وما يحيط بالبحر الأسود ثم إقليم باجوج ومأجوج ثم إقليم الصين ، هذه الأقاليم معروفة قسمت على أسس شعوب وأقوام منها ما قد ذكرها الله سبحانه وتعالى في القران الكريم كشعوب عديدة مجاورة للمسلمين[1] .

هذه الأقاليم السبعة هي التي كانت معروفة آنذاك والتي كانت علم الجغرافية تدرسها فعلم الجغرافية تعني معرفة أحوال تلك الأقاليم وسكانها وطبائعها وعاداتهم ومعرفة عروض تلك الأقاليم وبحارها وأنهارها . فإذاً هو كما يقول بعض المحدثين هو علم سطح الأرض ومظاهر الطبيعة والإنسان الذي يسكن سطح الأرض كلها تدخل ضمن هذا النطاق .

وللفلك والجغرافية علاقة واضحة من خلال الجغرافية الفلكية وكل ما يتعلق بالأجرام السماوية هذا العلم الذي أول من كتب فيه بطليموس تناول فيه أسماء معظم المدن المعروفة آنذاك وعدها واحداً بعد الآخر كما فعل ياقوت الحموي وتناول فيه طبيعة أرضها من جبال وانهار وبحار وأسمائها ثم شعوب هذه الأقاليم السبعة ، ومن المسلمين الذين كتبوا في تفسير الأقاليم السبعة سهراب وتحدث بإسهاب عن طريقة الاستدلال الى الأقاليم السبعة وتقسيماتها على خطوط الطول والعرض[2].

---

(1) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب ، ص 101 .

(2) سهراب ، كتاب عجائب الأقاليم السبعة الى نهاية العمارة ، تحقيق هانس فون مزيك ، مطبعة ادولف هولز هوزن ، فينا ، 1929 ، ص 7 .

الفصل الثاني
الجغرافية عند العرب المسلمين

المعارف الجغرافية عند العرب قبل الإسلام:

من اجل معرفة الجغرافية عند العرب ينبغي الرجوع والاعتماد على معطيات تم حفظها من قبل العرب بأنفسهم وبوسائل متعددة ، وغالبا ما تكون معلومات غير متجانسة ، ولكن في نفس الوقت يحتم علينا الاعتراف بأن العرب كانوا يمتلكون معلومات وخبرات جغرافية من خلال حاجاتهم المختلفة كالتجارة مثلا ولعبهم الدور الوسيط في التجارة الدولية بين الهند وأفريقيا الشرقية والعراق وبلاد الشام والإمبراطورية الرومانية من الجهة الأخرى ، فالمعلومات التي امتلكها العرب التجار كانت مأخوذة من رحلاتهم التجارية المختلفة والكثيرة وباتجاهات مختلفة ولاسيما في وصف الطرق التي كانوا يسلكونها مع ذكر الأماكن والقبائل والتجمعات السكانية التي كانوا يمرون بها من خلالها.

ومن الأهمية بمكان توضيح بعض مظاهر حفظ هذه المعلومات منها الشعر العربي الذي كان نموذجا مهما في الأدب العربي الذي أزال الاستغراب والغموض عن أماكن سكن وانتشار القبائل ورحلاتهم المختلفة ، ولا ننسى ايضا نمط الحياة الذي كان يعيشه العرب حياة البداوة وقوة ملاحظتهم في رصد الظواهر الطبيعية المحيطة بهم ، وكانت هذه التجارب بحد ذاتها تجارب وخبرات لا يستهان بها ولاسيما الاهتمامات الفلكية ، وترحالهم في الليل والنهار من اجل البحث عن أماكن تؤمن لهم مواد غذائية لهم ولحيواناتهم التي كانت تمثل جزءا من حياتهم البدوية ، وكانت خبراتهم في السير بالليل والنهار معتمدين على حركة النجوم ومعلومات فلكية سواء كانت منقولة او تم التوصل اليها من خلال تجاربهم الذاتية ، والتراث العربي يحفظ لنا روايات غنية عن الأنواء الجوية ومعرفة موسم الأمطار وحركة الرياح ، ولكن رغم ذلك كانت تلك المعلومات محدودة الأفق أي ان الفرات وجبال طوروس شمالا كانت نهاية معلوماتهم التي تخص معلوماتهم وتجاربهم الجغرافية العامة فكانت محدودة وغير واضحة ، ولا ننسى ان لبعض العرب من خلال اتصالهم بالنصارى واليهود الذين سكنوا في بعض المراكز الحضارية في الجزيرة العربية ومن خلال الكتب المقدسة دور في حصولهم على بعض المعلومات الجغرافية واختبار الأمم والشعوب التي وردت كقصص عن الأنبياء عليهم السلام.

عرف عن الشعب العربي حبه المفرط للرحلة والسفر والترحال منذ تكوينه الأولى ، وتشير المصادر والمعلومات عن القبائل العربية والمتواترة عنهم وبحثهم عن رزقهم وتجارتهم والبحث عن المعارف التي تصب في خدمة هذه الأهداف .

فقد بلغوا مناطق وأقاليم بعيدة من العراق والشام بحثاً عن الرزق والتجارة وتجولوا في أرجائها سواء كانت نائية او حضرية من مدن ومناطق نفوذ القبائل العربية المنتشرة في تلك البقاع ، وكانت الظروف الجوية وتضاريس الأرض لم تثنيه عن رحلاته وسفراته وكذلك متاعب

السفر والرحلة لم تمنعه من معرفة مختلف المسالك والطرق التي تؤدي إلى تلك الأمم والشعوب والقبائل ، وذهب بعض الباحثين إلى جعل الفقر شبه الجزيرة العربية وراء تلك المساعي للبحث عن التجارة والمراعي لسد نقص الغذاء وسد رمق الحيوانات التي كانت جزءاً مهماً في حياتهم البدوية والحضرية ، وكل هذه الرحلات والسفريات مدونة في أسفارهم وخطبهم ومسجلة في ذاكرة رجال النسب والأخبار الذين حفظوا لنا معلومات حول الكثير من المحطات التاريخية وبعض الأخبار المهمة في حياتهم ولعل رحلات الشعراء وتجوالهم بين الدول في العراق والشام بين المناذرة والغساسنة تشير إلى ان لهم معلومات وافية في الطرق والمسالك التي توصلهم إلى غاياتهم وقيل ان امرؤ القيس قد وصل القسطنطينية وقال الشعر هناك ، وكذلك كان لقبيلة قريش رحلاتهم التجارية بين الشام واليمن ورحلة الشتاء والصيف التي تدل بوضوح على انهم كانوا يمثلون الوسطاء بين تجارة الشرق والغرب وكذلك أقيمت في جنوب شبه الجزيرة دولة اليمن التي كانت مصدر تجارة ووسطاء في النشاط التجاري بين البحر العربي والمحيط الهندي وباتجاه العراق والشام ومن ثم إلى الشمال ، وكذلك كان لهم صلات تجارية مع أفريقيا والجزر الواقعة قبالة قارة أفريقيا وكانوا من كبار التجار في التوابل والطيب والافاوية ولهم صلاتهم مع الهند وسواحل الخليج العربي في الجنوب وما يذكر الشاعر العربي في العصر الجاهلي عمرو بن كلثوم[1] .

ملأنـــا البـــر حتـــى ذاق ذرعـــاً وظهـــر البحـــر نملـــؤه ســـفينا

ان التاريخ العربي قبل الإسلام وصل إلينا بالسماع والمنقول عن طريق الرواية التي انتقلت عبر الأجيال وهي غالباً تتألف من قصص وروايات وأساطير رواها رجال معدودون ويحتل الشعر العربي فيها المكانة البارزة ، وقد ذهبت بين الناس على انها تاريخ تلك الحقبة وقبلتها الأجيال التالية وأجادوا روايتها وسجلها المؤرخون فيما بعد دون اعتراض او التشكيك فيه[2] .

وهناك مجالات عديدة مارس العرب الجغرافية ضمن سياق التاريخ ولعل من ابرز هذه الميادين :

1- رواة الشعر وعلماء اللغة ساهموا مساهمة فعالة في حفظ التاريخ لان الشعر كان ديوان العرب ومن خلالها تم دراسة أحوال العرب ومكانتهم وأحوالهم الاجتماعية وهناك تفاصيل عديدة في أحوالهم الجغرافية من رسم مناطق نفوذهم ومساحات رعيهم للحيوانات .

2- علم الأنساب او الإخباريون كان لهم الدور في حفظ تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام وان العرب كانوا يعيشون حياة قبلية وتعد القبيلة كوحدة الأسرة وتذوب فيها شخصية الفرد

---

(1) حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 26-27 .

(2) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 5 .

فكانوا الإخباريون يحملون تاريخ القبائل ومساكنهم ومضاربهم وهي بذلك تحمل مسحاً جغرافياً لمناطق انتشار القبائل وانتقال أجزاء منها كهجرات في شبه الجزيرة نحو الشمال الى الهلال الخصيب وبلاد الشام وحتى الى شمال أفريقيا .

3- التجارة التي مارسها بعض المجتمعات العربية ولاسيما مجتمع مكة والمدينة المنورة واليمن كان له الدور في ممارسة الجغرافية لمعرفة المسالك والدروب التي تمر بها القوافل التجارية كما ورد في قوله تعالى : **(وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون)** [1] .

4- الحج كان له الدور في ممارسة الجغرافية اذ وسعت معارفهم للأماكن والمحطات التي تنزل اليها قوافل الحج وقدوم القبائل في أشهر الحرم للاشتراك في موسم الحج وما كان يدور في هذا الملتقى من حوارات وتبادل معلومات مختلفة وكانت الجغرافية جزءاً من تعريفهم بأماكن القبائل ومعرفة الممرات ومسالك قدوم القبائل الى مكة في موسم الحج .

5- علم الفلك او التنجيم كانت ممارسة لبعض العرب في مراقبة النجوم ومعرفة المواقيت كان له دور في الاهتمام بهذا العلم التي تدخل ضمن معرفة جغرافية لمعرفة الطرق والأوقات لتسهيل الرحلات التجارية والسفر .

6- العلاقات التي ربطت العرب مع الأمم والشعوب المجاورة كان له الدور في حبهم ورغبتهم لمعرفة الطرق التي توصلهم الى التعرف الى هذه الأمم والشعوب .

7- الاطلاع على كتب الأديان القديمة كان له الدور في توسيع معرفة قسم من العرب في[2] تاريخ الأمم والشعوب ومناطقهم الجغرافية ومعرفة بعض الظواهر الطبيعية وطوبغرافية البلدان ومعرفة البحار القريبة منهم والأمم التي نزل فيهم الأنبياء والرسل إلا ان هذه الفئة كانت محدودة لان العرب كانوا لا يحبذون فكرة التعليم والقراءة والكتابة وتركوا هذه المهنة الى العبيد والعرب كانوا يرفعون عن هذه الممارسات بل كانوا يعدون الفرسان لساحات القتال للدفاع عن القبيلة وممارسة المهن التي تليق بهم في مجتمعهم كالتجارة التي كانت رائجة لديهم ولهم باع طويل في رحلات تجارية بين البلدان المحيطة بهم وكانت معلومات العرب الجغرافية محدودة لا تتعدى محيطهم ودول الجوار فضلاً عن بعض الأخبار التي يسمعونها من التجار الهند والرومان والأحباش عن ما وراء بلدان المحيطة بهم ولا يعرفون أكثر من سلاسل جبال زاكروس وطوروس ويعتبرونها حدود العالم ومن البحار لا يعرفون سوى البحر الأحمر والخليج العربي والبحر المتوسط والبحر العربي وكلها معلومات تتركز على سواحل تلك البحار وكان معرفتهم بفنون الملاحة محدودة ولم يمارسوا مهنة التجارة البحرية بل اكتفوا

---

(1) سورة قريش ، الآية 1 و 2 .

(2) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 47-48 .

ان يكونوا وسطاء بين الهنود بالنسبة للتجارة مع الصينيين والدولة البيزنطية بعكس الفينيقيين والإغريق الذين دخلوا البحار والمحيطات وأصبحت لديهم تراكمات معرفية واضحة المعالم حول الجغرافية ومعرفة المسالك والممالك ، واستمروا العرب الساكنين داخل الجزيرة العربية بعيدين عن التجارة البحرية حتى بعثة النبي (ﷺ) ودخولهم الإسلام وكان للإسلام دور وحد فاصل ونقلة نوعية حول توجيه العرب نحو الأمم والشعوب من اجل نشر الإسلام .

عوامل ظهور الجغرافية عند العرب المسلمين :

1- **الدين** : ان مهمة نشر الدين الإسلامي الى الأمم الأخرى لقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فكانت دعوة واضحة الى معرفة الأمم ونشر الرسالة الجديدة والآيات والأحاديث النبوية كانت تحبذ الى المسلمين للسفر والترحال لأنها مغانم الدنيا ومعرفة الأمم والقبائل الأخرى[1] .

2- **الأقوال المأثورة والحكم** : ان الأقوال المأثورة عن الصحابة والخلفاء والشعراء والأدباء في الترغيب للسفر والبحث عن الرزق في كل البلدان والأمم .

3- **الأمور السياسية** : ان الفتح ونشر الدين الجديد كان يفرض على المسلمين كواجب من اجل المشاركة في الجهاد لغرض نشر الدين الإسلامي وفعلاً تم افتتاح مناطق واسعة أصبحت تحت نفوذ الدولة الإسلامية فكانت هذه الفتوحات تسير بسرعة مما أدى الى انهيار الدول والإمبراطوريات وتبقى عوامل عددية منها اقتصادية وأخرى دينية ساهمت في اندفاع المسلمين الى المزيد من الفتوحات رغم قلة أعدادهم في بعض المناطق إلا ان الرغبة الصادقة كانت من وراء الفتوحات الإسلامية .

4- **التجارة وكسب العيش** : لقد كانت التجارة من العوامل المهمة في تحفيز العرب المسلمين لمعرفة المسالك والممالك للوصول الى البلدان الغنية بالثروات والتجارة فكان طلب الرزق والرحلة عاملاً مضافاً الى العوامل الأخرى في معرفة العرب المسلمين للجغرافية ومعرفة طوبغرافية الأرض من الأنهار والسهول والجبال ومعرفة الأمم والشعوب .

5- **الحج** : وهو من الفروض الرئيسية التي فرض الإسلام على المسلمين لذلك كانوا يحرصون على معرفة أفضل وأسهل الطرق في الوصول الى الحجاز وأداء مناسك الحج[2] .

6- الاستكشافات الجغرافية : ودفع حب الاستطلاع بالمسلمين الى السفر والرحلة لمعرفة مجاهل الأرض ورغبة في تسجيل مشاهداتهم .

---

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 58 ؛ خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 8 .

(2) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 58 .

7- **السياحة** : العرب معروفون منذ القدم حبهم معرفة مجاهل الأرض والتمتع بالظواهر الطبيعية والوقوف على عجائب طبيعة الأرض وغريبها وان نسبة كبيرة من الجغرافيين العرب هم كانوا سواح قبل شروعهم في الاهتمام بعلم الجغرافية .

8- **طلب العلم** : وهو فريضة على المسلم طلب العلم من المهد الى اللحد والى الصين .

9- حاجتهم الى معرفة المسافات بين المدن والأقاليم دفعت بهم السفر والرحلة لتسجيل هذه المعلومات .

10-معرفة غرائب الأرض وما وراء الأراضي المجهولة وحب استطلاع لاكتشاف عجائب المخلوقات والأمم .

11-معرفة أسرار الأمم والشعوب التي ذكرت في القران الكريم .

12-الحاجة الفقهية لسماع الأحاديث المنتشرة عند الصحابة والتابعين الذين توزعوا في البلاد المفتوحة .

13-تخفيف الإسلام عبء السفر عن المسافرين كتأجيل الصيام واختصار الصلاة مما شجع المسلمين بالسفر والرحلة .

14-الاهتمام بعلم الفلك ورغبة المسلمين في معرفة النجوم والأنواء الجوية وتطبيقها على الأرض[1] .

المدرسة العربية اليونانية :

تضم المكتبة العربية المؤلفات الجغرافية العديدة إلا ان المؤلفات للقرن الثالث الهجري التاسع الميلادي تمتاز بكثرة المؤلفات وهو تراث ضخم ومجموعة جغرافية كبيرة أغنت المكتبة العربية وكذلك امتازت كونها تأثرت تأثراً كبيراً بالفكر والمعرفة اليونانية الرومانية حتى كاد بعض الباحثين ان يطلق تسمية المؤلفات اليونانية على تلك المؤلفات لولا انها أنتجت بأيدي عربية ولغة عربية أدبية رصينة بسبب كثرة تأثرها بالمدرسة اليونانية ، وكان رأس هؤلاء ومن هذه المدرسة ابن خرداذبة صاحب (المسالك والممالك) واليعقوبي مؤلف (كتاب البلدان) وابن رسته

(1) ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب إسحاق بن النديم ، الفهرست ، تحقيق يوسف علي الطويل واحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2010 ، ص141 ؛ خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 8-10 .

واضع الاعلاق النفسية ، والخوارزمي الذي ألف (كتاب صورة الأرض) وابن الفقيه الذي وضع (كتاب البلدان) والكندي مؤلف (رسم المعمور في الأرض) وقدامة بن جعفر وهو الذي خلف لنا (كتاب الخراج) ، وقد اخذ هؤلاء المعرفة الجغرافية ، اما عن اليونان وكتبهم مباشرة او عن الترجمات والخلاصات التي نقلت عن السريانية والارمنية التي تم نقلها من قبل المترجمين في العصور الإسلامية الأولى[1] .

وكانت بداية هذا التأثير جاء على ضوء ترجمة كتاب بطليموس في الجغرافية عدة مرات في العصر العباسي ولكن ما انتهى الينا هو اقتباس محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى (232هـ/ 847م) لهذا الكتاب ، ويذكر ابن خرداذبة[2] انه رجع الى كتاب بطليموس وترجمه وكذلك درس المسعودي نسخة من جغرافية بطليموس كما راجع خارطته عن العالم ، ومن الكتب التي ترجمت كتاب الجغرافية لمارينوس الصوري (70–130م) والذي درسه ايضا المسعودي[3] واطلع على الخارطة التي ترجع الى مارينوس ، وكتب هؤلاء وغيرهم من علماء الهيئة والفلاسفة الإغريق قد زودت العرب عن هيئة الأرض وتصورات ونظريات ونتائج عن الأرصاد الفلكية وساعدتهم على دراسة الجغرافية بشكل علمي دقيق ، حتى ذهب ابن حوقل الى جعل كتب بطليموس خال من الخطأ ومعصوماً من الزلل ، إلا ان في المدد اللاحقة ظهرت هناك بعض الاضطرابات بين ممارسات المسلمين في الجغرافية مع معلوماتهم عن المدرسة اليونانية لذلك حاول بعض الجغرافيين الخروج من هذا الطوق بعد اكتشافات العرب وتطورهم في العلوم المختلفة التي خدمت الجغرافية كثيراً أمثال الإدريسي الذي كان قد وصل الى مرحلة متقدمة في مجال الجغرافية ورسم الخرائط[4] .

المدرسة العربية (البلخية) :

يعد القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي فترة ظهور المدرسة العربية في الجغرافية بسبب ظهور عدد من العلماء الجغرافيين الذين اجتهدوا وعملوا في سبيل تكوين مدرسة ذات شخصية تعبر عن الأصالة العربية ونتجت هذه الجهود إلى إنتاج عدد من المؤلفات الجغرافية والتي أغنت المكتبة العربية بكتب الرحالات وكان في مقدمة هذه المجموعة أبو زيد البلخي المتوفى سنة

---

(1) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ،الشركة العالمية للكتاب،دار الكتاب اللبناني، بيروت،1962،ص 17 .

(2) المسالك والممالك ، ص 3 ، ص 5 .

(3) مروج الذهب ، ج 1 ، ص 15 .

(4) الفندي الجغرافية عند المسلمين ، ص 100–103 .

(322هـ/934م) وهو احد أعلام الفلسفة والتاريخ[1] ، وهو صاحب كتاب (صور الأقاليم) وبسبب علمه الواسع وتفرده ببعض المعلومات والاستقلالية عن بطليموس حتى عرفت تلك المرحلة باسم المدرسة البلخية بما كان له من تأثير على الذين جاءوا من بعده ، وله الشهرة الواسعة في الرحلات ورسم الخرائط ويمثل كتاب الاصطخري (المسالك والممالك) نسخة موسعة ومتطورة عن نسخة البلخي حسب رأي بعض المحققين أمثال (ده غويه) وهذا دليل على تأثير البلخي وأصالة مدرسته و منهجيته في العلوم ولاسيما دراسة الأرض والأقاليم ورسم الخرائط[2] .

والى جانب البلخي كان ابن حوقل والمقدسي مجموعة أخرى تأثروا به المدرسة والتي سوف نتطرق اليهم تباعاً .

المعاجم الجغرافية :

تطورت المفاهيم الجغرافية لدى العرب المسلمون والمختصون في كتب البلدانيين ولاسيما في الشام واتت ثمارها ، فقد ظهرت كتب أبو الفداء وكتب الزيارات ، ومعجم ياقوت الحموي المتوفى سنة (626هـ/1229م) بعد كتابه معجم البلدان من انفع الكتب الجغرافية في المكتبة العربية ، وهذا المعجم تم تأليفه سنة (621هـ/1224م) ويضم هذا المعجم معلومات جغرافية قيمة عن المدن العالم الإسلامي ومعلومات اجتماعية واقتصادية مهمة ، لذلك يعد كتابه مرجع لكل طالب في التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع ولا يمكن الاستغناء عنه بما يضم من معلومات ، ويمثل الكتاب ايضا إلى عمق علمه وغزارة أفكاره وكذلك يدل على تطور الفكر الجغرافي آنذاك ، وكان يعد تقليداً ومن عادات علماء الشام ، ومن الكتب الأخرى التي ألفها ياقوت الحموي (كتاب المشترك وضعا والمختلف صعقا) صنفه سنة (623هـ/1226م) [3] .

مفاهيم العرب حول شكل الأرض وحركتها :

من المعروف لدى الباحثين الجغرافيين ان العرب تأثروا بالأفكار والمفاهيم اليونانية والرومانية والشعوب الأخرى في تحديد أفكارهم حول الأرض ولاسيما آراء أرسطو وبطليموس ، فالآراء الأولية لدى العرب ان الأرض مسطحة إلا ان تطور الفكر الجغرافي بعد الفتوحات الإسلامية والنهضة العلمية والحصول على المعلومات الهائلة حول أفكار الشعوب وخبرات

---

(1) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 31 .

(2) الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 125–126 .

(3) المرجع نفسه ، ص 155–157 .

العرب العملية كلها أدت إلى نبذ هذه الأفكار وعدم الاستسلام لها[1] ، ولعل في مقدمة العلماء والمسلمين من ناقضوا تلك الأفكار هو ابن خرداذبة الذي ذكر في مقدمة كتابه (المسالك والممالك) ان الأرض (مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك وبنية الخلق على الأرض ان النسيم جاذب لما في أبدانهم من لخفة والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء) [2] .

اما ابن رسته فقد ذكر في كتابه (الاعلاق النفيسة) ان الأرض مستديرة كالكرة قائمة في جوف الفلك والهواء يحيط بها في جميع نواحيها[3] .

ان العرب المسلمون في القرن الأول الهجري ظلوا في أفكار عن الأرض لا ترقى إلى مستوى أعلى من ذلك وانهم لم يوجهوا نحو القرآن والأحاديث للتعرف أكثر حول الأرض ولكن الفترات اللاحقة أصبح هناك آراء مثل آراء الهداني بأن الأرض ليست مسطحة والجاحظ في رسالته (التربيع والتدوير) والكندي لديه بحوث حول الأرض كل هذه المحاولات كانت جادة لمعرفة هيئة الأرض وحركاتها[4] ، وقال الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون)سورة يس آية ٤١ [5] فيفسر المسعودي[6] ان الفلك يدل على الاستدارة في لغة العرب والفلك السماء ويعرض بعض آراء الفلاسفة اليونان حول الأرض والفلك موضحاً دوران الأرض والكواكب التي تدور حول الأرض كالقمر والعطارد والزهرة والمريخ ، ومن بين علماء المسلمين الذين قالوا بكروية الأرض ابو الريحان البيروني وأكد على دورانها حول محورها ووضح خطوط الطول والعرض التي تم تقسيم الأرض[7].

---

(1) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 23 .

(2) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 4 .

(3) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 24 .

(4) حبيب الراوي ، شكل الأرض دراسة لتطور الفكرة عند العرب ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1962 ، ص 9-12 .

(5) سورة يس ،آية 41

(6) المسعودي ، علي بن الحسين ، التنبيه والإشراف ، طبعة ليدن ، بريل ، 1893 ، ص 8 و 9 .

(7) ابو الريحان محمد بن احمد البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، وضع حواشيه خليل عمران منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2000 ، ص 4 .

الرحلات عند العرب وآدابها :

ورد في القران الكريم ان لقبيلة قريش رحلتان ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وتذهب المصادر الى ان هذه الرحلات كانت للتجارة وانعكاساً لمهنة العرب في الجزيرة العربية ولاسيما مكانة مدينة المكة المكرمة لعبت دورا مهما في التجارة فكانوا أهل مكة تجار من الطراز الأول عند العرب ، وكانوا وسطاء بين تجارة اليمن والشام ولهم قوافلهم المعروفة لنقل البضائع المختلفة والأغذية بين اليمن والشام فضلا عن سد حاجة أهل مدينة مكة الى الأغذية ، لأنها كما هو معروف مدينة جبلية جرداء لا زرع فيها فضلاً عن كونها تقدم الطعام بكثرة للحجاج في مواسم الحج والمناسبات الأدبية الأخرى[1] .

وساهمت الفتوحات الإسلامية في تطوير تجارة مكة الى مختلف الاتجاهات فضلاً عن ان هناك عوامل أخرى كثيرة ساهمت في تطوير التجارة وكثرة الرحلات لدى المسلمين بعد ان امتلكوا الأموال ووسعت رقعة البلاد لتشمل من حدود الصين شرقاً الى جنوب فرنسا غرباً لذلك اتسعت أمامهم الرحلات المختلفة[2] ، ولعل من ابرز هذه العوامل التي ساهمت لتطوير وازدهار الرحلات هي كما يلي :

1- الفتوحات الإسلامية وتوسع رقعة البلاد وأصبح أمام التاجر مصادر مختلفة من الشرق الى الغرب لذلك اتسعت تجارتهم وتنوعت مصادر بضاعتهم واتسعت آفاق الرحلة وازدادت إمكانياتهم وكان التجار لا يمرون في بلدة حتى اشتروا او باعوا بضاعة ما ونقلوا أخبار المدينة من عادات وتقاليد وأصبح مصدر من مصادر التراث الأدبي العربي والفكر الجغرافي[3] .

2- المراكز العلمية التي انتشرت في المدن الإسلامية أصبحت سبباً في النقل والرحلة لغرض طلب العلوم فهذا بغدادي يشد الرحال الى الأندلس ليسمع او يقرأ على طلبة العلم ومن ثم يمر بالمدن خلال رحلته ويدلوا دلوه في مضمار المعرفة والسماع والرحلة لغرض أهداف أخرى الى جانب العلم[4] .

3- الرحلة لطلب الحج وهو ما فرض على المسلمين لحج بيت الله ومن استطاع منهم . لذلك حفزت هذه الرحلات باتجاه مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وتدوين شهاداتهم عن أسفارهم ورحلاتهم بين الجزيرة العربية ومدنهم[5] .

---

(1) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 147 .

(2) حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، كويت ، 38 ، 1990 ، ص 79 .

(3) زيادة ، جغرافية والرحلات ، ص 147 .

(4) زيادة ، جغرافية والرحلات ، ص 148 .

(5) المرجع نفسه ، ص 148 .

4- الى جانب التجارة والحج وطلب العلم ظهر طبقة من المسلمين يقومون بالرحلة لغرض الاحتراف او الهواية ويرحل من اجل أغراض وأهداف مختلفة ولذلك ساهمت تلك الرحلات الى أغناء المكتبة العربية بتسجيلات ومشاهدات وانطباعات الرحالة بعد ان دونوها في كتب وبأسلوب أدبي رفيع فأصبحت هناك خزائن للكتب ومكتبات تنتشر في مدن العالم الإسلامي تضم مجموعة من الكتب الجغرافية في أدب الرحلات وهناك طلائع وعلماء كثر ممن ساهموا في تأليف مصنفات عددية ومعاجم وكتب موسوعية تظم معلومات وأخبار وعلوم أغنت المكتبة العربية[1] .

5- رحلات الوفود (الرحلات الدبلوماسية) التي كانت تخرج من الخليفة والأمير لتبادل الرسائل والهدايا بين الملوك والرؤساء فكانوا بعض الرحالة الجغرافيون يقومون بهذا العمل بسبب معرفتهم للمسالك والممالك ولديهم أخبار عن الشعوب والأمم .

6- ورحلات أخرى لمعرفة اللغة من حيث اللفظ واللحن لذلك اضطر علماء اللغة الرحيل إلى البادية لأخذ الشواهد النحوية من البادية لان اللغة في البادية لم يحدث فيها أي اختلاط أي عندما يضع القواعد اللغوية يأخذ الشواهد من أهل البوادي الذين حافظوا على اللغة محافظة تامة وكذلك الرحلة إلى طلب الحديث وهي أوسع الرحلات وأكثرها أهمية لان علم الحديث منذ القرن الثاني بدأ الوضع فيه وهناك من وضع أحاديث كاذبة عن الرسول (ﷺ) لأسباب شتى سياسية او ترغيبية او ترهيبية او دينية وخلافات مذهبية وعقائدية ومحاولات الطعن في الإسلام ، كلها دفع بكثير من الناس إلى وضع أحاديث عن الرسول (ﷺ) ، لذلك اتجه كثير من علماء الحديث للرحلة في طلب الحديث فظهر بذلك علم قائم بذاته وهو علم الجرح والتعديل او علم الرجال .

أي ان مهمة هؤلاء تزكية رجال الحديث أي رواة الحديث فهو علم واسع والرحلة في طلب الحديث نفسها لطلب الحديث وتسجيلها ، واخذ علماء الحديث يرحلون من مصر إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى لذلك كما ذكر نكلسن في تاريخ الأدب العباسي هم كالنحل يجمعون الشهد ويطوفون من مكان إلى آخر والرحلة في طلب العلم عموماً سواء من كان يريد ان يطلب علماً او ديناً او علم حديث او علم الفقه بمذاهبه المختلفة او العلوم اللغوية او النحوية او الأدب بنفسه المنظوم والمنشور او علم التاريخ او العلوم العقلية بما فيها الطب الرياضيات الفلك والميكانيك (الحيل) الكيمياء .

والرحلة الجغرافية هي جزء من الرحلات سواء لغرض البحث في الجغرافية او للأغراض السابقة واذا كان لذلك الرحالة اهتمامات جغرافية فيبحث في ذلك العلم أي بالإضافة إلى كونه

---

(1) نفسه ، ص 148 .

طبيب جمع معلومات جغرافية نتيجة اهتمامه ايضا بالجغرافية إلى جانب عمله ، وبشكل عام ان الرحلة هي قديمة قدم الإنسان منذ ان وجد على الأرض مارس الرحلة سواء كانت بدائية قصيرة او رحلة طويلة ، في كلتا الحالتين هي رحلة عرفها الإنسان منذ العصور الغابرة وان اختلفت دوافع الإنسان وهي التي ساعدت على اكتشاف مواطن الإنسان وكيف يتعرف على الأمم الأخرى والمجتمعات الأخرى ان لم يرحل اليها ولو كانت التجارة أساس لذلك الرحلة نحو آسيا وأفريقيا للاطلاع عليها فمنذ القدم رحل الإنسان لتحقيق مآربه وبين هؤلاء الرجال كان رجال علم ودين وهواة ومغامرين لذلك فهي متنوعة .

وكل هؤلاء الرحالة اتصفوا بالدقة في ملاحظاتهم وتسجيل تلك الملاحظات التي شاهدوها او سمعوها بدقة وهذا ما شاهد ومن خلال الوصف (المنهج الوصفي) مثل رحلة ابن جبير وابن بطوطة والمسعودي حيث دونوا مشاهداتهم عن تلك الرحلات وقد درجوا على تسمية ذلك الوصف باسم أدب الرحلات لذلك حتى المستشرقين ساروا على هذا المنهج مثل كراتشوفسكي وهم أنفسهم (الرحالة القدامى) وصفوا رحلاتهم بأدب الرحلات لان تلك الرحلات أشارت لمكانتهم ووصفهم لتلك المناطق والبلدان وشعوبها وايضا يذكرون فيها دوافع تجوالهم هل هو سبب ديني او لغاية أخرى او سفارة مثل رحلة ابن فضلان إلى بلاد الجزر او بسبب تجارة او علم وسموه بذلك لأنهم دونوا فيه كل الانطباعات التي شاهدوها وسمعوها أثناء رحلتهم لذلك تعتبر مصدر للثقافات الإنسانية ووصفها مع جوانب كثيرة من حياة الناس اليومية .

لذلك فان هذه الرحلات تتمتع بقيمة تعليمية من حيث انها تعتبر أكثر المدارس تعليماً وتثقيفاً للرحالة نفسه وإثراء فكرة (لماذا) لان هذا الشخص عندما يرحل سواء لأجل العلم يكسب العلم ويحدث خلاله ما يعرف باختلاف الأفكار فيتعلم الشيء الكثير من تلك الثقافات من أكثر تلك المدارس تثقيفاً وتعليماً بالنسبة للرحالة بمختلف اختصاصاتهم ، وهذه الرحلات تصور عموماً ملامح العصر الذي عاشوا فيه أولئك الرحالة وما يحيط بذلك العصر من ظواهر اجتماعية واقتصادية وثقافية لكل مجتمع من المجتمعات وعموماً ما دامت مهنة الرحالة بهذا الشكل فإذاً نلاحظ مسألة مهمة قد يشترك فيها كل الرحالة .

وكذلك شد الرحال الى البلدان الغير الإسلامية ولكون الفرد يعيش في إطار معين من التقاليد والثقافات والعادات التي نشأ عليها وألفها فان حكمه على الشيء المخالف له في المجتمعات الأخرى فيكون فيه شيء من التعسف فيسخر أحياناً ويتعجب أحياناً أخرى ، منها ما يلاحظ في كتابات الرحالة العرب وهو لا يدرك ان نفسه وقع أسيراً لعادات وتقاليد لا تقل غرابة عن تلك التي تسود حياة الآخرين .

فالرحلات الجغرافية اما ان تكون للأغراض الجغرافية او لأغراض أخرى تستخدم في الجغرافية ، وجذور هذه الرحلات عند العرب تمتد منذ عصر ما قبل الإسلام فكانوا يرحلون إلى

مناطق مختلفة ولاسيما ان هدفهم من ذلك التجارة مثل قريش في رحلتي الصيف والشتاء وسكان اليمن الذين كانوا يرحلون إلى الهند والصين وكانت الرياح الموسمية[1] حكراً عليهم والتي كانت تهب بين شهر الخامس والسابع مسبباً سقوط الأمطار صيفاً على اليمن .

فالرياح الموسمية كان لها دور في التجارة وقد حاول الرومان اكتشاف تلك الرياح ليمارسوا تجارتهم بعيداً عن تدخل أهل اليمن وفعلاً اكتشفوا سرها ، ومهما يكن فان أهل اليمن كانت تجارتهم باتجاه جنوب شرق آسيا والى الحبشة ومصر عبر البحر الأحمر فضلاً عن تجارتهم البرية باتجاه شمال الجزيرة العربية وايضا كانت لدولة الانباط دور مهم في ذلك لكونها تقع على الطرق التجارية وكذلك الحضر فضلا عن مكة كانت ايضا تقع على الطريق التجاري .

ان العرب قبل الإسلام مارسوا التجارة ومادامو فعلوا ذلك يجب ان يكون لهم عناية بمعرفة الطرق والمسالك والكواكب للمسير ليلاً في الصحراء ثم ايضا معرفة تلك البلدان وطبائعها وطبائع سكانها وهي محاولة لوضع فكر جغرافي لذلك وصل الينا كتاب الأنوار في حواسم العرب الذي تحدث فيه عن جانب من الفكر الجغرافي عند العرب والذي تولد له الدينوري – نتيجة ذلك رحلاته الجغرافية واستمر هذا التطور خلال العصر الأموي ونشط أكثر بعد ان أصبح دمشق عاصمة للدولة وتوسع بصورة أوسع في العصر العباسي بسبب اتساع الدولة والتطور الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع بحكم تفاعله مع أجناس أخرى وبحكم وصول العرب إلى أقوام غير عربية كبلاد فارس وما وراء النهر والأندلس .

فأصبح هناك انفتاح أكثر على الحضارات الآخر علما ان الحضارة الإسلامية استوعبت تلك الحضارات لكن ظل هناك بعض العلاقات متبادلة مع تلك الأقوام مما شجع الرحلات عموماً والرحلات الجغرافية خصوصاً دوافع معروفة او عامة ويمكن ان تنقسم دوافع هذه الرحلات إلى قسمين رئيسيين :

1- الرحلات الطوعية :

وهي التي تقوم بها الأشخاص بقرارة أنفسهم للذهاب إلى المناطق التي يرمون الذهاب اليها يأتي في مقدمتها الحج ، وان الشخص الذي يذهب لأداء الحج قد يستغل رحلته هذه للاطلاع على المفاهيم الجغرافية لان كثير من الأشخاص الذين يؤدون فريضة الحج يذهبون إلى مناطق أخرى للسياحة والاطلاع ، مثل ابن جبير الذي رحل إلى الحج من الأندلس ولم يعد إلى بلده وانما أكمل رحلته مع الحجاج إلى بلاد المشرق وهناك أمثلة كثيرة من الرحالة الذين جمعوا

(1) شوقي عبد القوي عثمان ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، 151 ، الكويت ، ص 6 .

أهداف عديدة في الرحلة الواحدة[1] ، ومن الرحلات الطوعية ايضا طلب العلم فان كثير من العلماء رحلوا بحثا وراء العلوم ، مثل طلب الحديث واستغلوا رحلاتهم للاطلاع على الأفق الجغرافية وكتبوا عن طبيعة كل منطقة وسكانها وعاداتها وتقاليدها ، ثم تأتي التجارة كما كان الوضع عند عرب ما قبل الإسلام وهي أوسع رحلة طواعية للاطلاع على المعالم الجغرافية وابرز من يمثلها ابن حوقل حيث كان تاجراً في القرن الرابع الهجري واستغل أولاً تجارته للاطلاع على المعالم الجغرافية في كل البلدان التي زارها ودونها في كتابه صورة الأرض ، وقدم معلومات اقتصادية قلما ينتبه اليها الجغرافي في كتابه عن أنواع المحاصيل ومقاديرها وأثمانها وعن الأسواق وأعدادها وما تنتجها تلك البلدان ، فهو استغل التجارة في التدوين الجغرافي وهو ضمن معلومات اقتصادية قيمة ، لذلك قلما نجد من يبحث عن المعلومات الاقتصادية في القرن الرابع الهجري إلا يعتمد على كتابه في التجارة ، في العصر العباسي كان ياقوت الحموي المتوفى (626هـ /1228م) تاجراً بالإضافة إلى معرفته الجغرافية فكانت رحلاته للتجارة أساساً ، إلا ان مؤلفه جاء بناء على تجواله في العديد من المناطق والعديد من الأهداف وراء تأليفه ورحلاته .

2- الرحلات التكليفية :

فيما يتعلق بالنوع الثاني من الرحلات وهي ان أفرادا يكلفون بمهام قد تكون رسمية من قبل الدولة ويستغل هؤلاء سفراتهم للاطلاع على المعارف الجغرافية ولاسيما الذين لديهم معارف جغرافية يمكن الاعتماد عليهم في تحقيق تلك المهمات ، ومن ابرز الرحلات التكليفية التي قام بها جماعة من أهل بغداد بناء على طلب الواثق بالله سنة(227هـ/293م) بقيادة سلام الترجمان ويتحدث عن هذه الرحلة كما رواها ابن خرداذبة[2] على ان الخليفة الواثق بالله رأى في منامه رؤية ان السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج وماجوج قد تصدع ، فأراد إرسال بعثة رسمية (وفد إلى بلاد القوقاز) أي إلى حصون جبال القوقاز الذي يذكر ان سد يأجوج وماجوج يقع في تلك المنطقة ويذكر ان سلام الترجمان كان يعرف من اللغة (30) لغة .

---

(1) ابو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988 ، ج2 ص16 .

(2) ابن خرداذبة ، ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله ، المسالك والممالك ، مطبعة يريل ، 1889 ، ص162-170 .

وقد أرسل معه من الغذاء والأمتعة والأموال بما يكفي لان توصله إلى تلك المنطقة وأرسل معه رسائل إلى ملوك تلك المنطقة وأرسل معه (50) رجلاً ، واستغرقت الرحلة ما يقارب سنة ونصف وهكذا عاين سلام إحدى السدود هناك وجد انه قد حصل فيه شرخاً ، وشاهد سلام الترجمان كثير من المعالم الجغرافية واطلع على العديد من بلاد المشرق حتى وصل إلى القفقاس تضيف الرواية ان سلام قد سئل أهل المنطقة عن ياجوج وماجوج فأجابوا بأنهم قد شاهدوا أقواماً على شكل أقزام وجاءت ريح سوداء فرمتهم على بلادهم وطولهم يتراوح ما بين شبر او اثنين[1] ، وكانت هذه الروايات التي أوردها بما فيها من الخرافات والأساطير .

وياجوج وماجوج هي حقيقة ثابتة ذكرت في القران الكريم لكنها أخذت طابعاً أسطورياً وما قام به سلام الترجمان يدخل في باب الرحلات التكليفية ، وهناك أشخاص يرسلون إلى الأقاليم التي دخلها الإسلام من اجل تقدير اقتصاديات تلك البلدان ومن اجل الكتابة عن طبيعة شعوب تلك المنطقة ونقل الأخبار عن الأقاليم والولايات .

لذلك كلف الحكام هؤلاء الأشخاص مثل ابن خرداذبة الذي كتب تقريراً عن تلك المنطقة وأطلق على هذا النشاط تسمية الجغرافية الإدارية او كتابة تواريخ الأقاليم وقد لعبت الرحلات جانب مهم في ذلك .

آداب الرحلة :

وان الرحلة في القرن الرابع الهجري قد اخذ مدى اكبر وأوسع وتجاوزت ديار المسلمين بشكل كبير على أمل تحقق أهداف اقتصادية لحساب التجارة والرحلات الدينية لغرض الحج وأخرى سياسية وإدارية لإدامة العلاقات بين الدولة العربية الإسلامية من جهة والروم من جهة ثانية او بين المسلمين من جهة والصليبيين من جهة ثانية ، او تعمل لحساب العلم والمعرفة بعد ان توحدت الأقاليم فالرحلات تشطت وتوسعت بسبب هذه التفرعات ، وكثير منهم استغلها للسيطرة على تلك الأقاليم أي معرفة ما يدور في تلك الأقاليم من جغرافية فلكية واقتصادية 000 الخ .

والرحلات العلمية لها تقاليد وآداب ، هذه التقاليد والآداب تنبه اليها الأوائل ممن تناولوا الرحلة وابرز من كتب تقاليد الرحلة وآدابها الإمام ابو حامد الغزالي[2] في احد مؤلفاته وهي مستقاة من التقاليد الإسلامية فيقول عن الرحالة عندما يرومون السفر عليه قبل ذلك رد المظالم وقضاء الديون ان كان عليه ديناً ويرده ، ثم إعداد النفقة لمن تلزمه النفقة .

---

(1) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 165 .

(2) إحياء علوم الدين ، مكتبة عبد الوكيل الدروبي ، دمشق ، (د.ت) ، مج2 ، ص 224 .

ويعني ان الذي يروم الرحلة عليه ان يوفر لمن كان مسؤولاً عن إعالتهم (مأكل ملبس 000 الخ) فليس من المعقول ان يذهب في رحلة وأهله في العراء او بدون مسكن ، كما عليه ان يرد الودائع ان كان عنده ، تيمناً بالرسول (ﷺ) عندما هاجر إلى المدينة وكل عليه ان يرد الودائع إلى أهلها ، كما يجب عليه ان يأخذ من الرزق ما هو حلال وغير حرام ، فالآداب الإسلامية انعكست على تقاليد وآداب الرحلة ، وعليه ان يصطحب معه من يعينه على الدين ولا يجوز مثلاً ان يصطحب رجلاً لا يؤمن بالله او سكيراً او غير ذلك ، وان الجمع في الصلاة تقديماً او تأخيراً وأمور أخرى التي نوه عنها المسلمون تصب في هذا الاتجاه .

وعلى الرحالة الالتزام بها حتى تتحقق الفائدة من الرحلة وقد عبر عنه الجغرافيون أنفسهم ولذلك يمكن ان تتوضح أهمية الرحلة والفائدة المتوخاة منها عند العرب المسلمين في أقوال الجغرافيين يقول المسعودي " ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي اليه من الأخبار لخمس قسم عمره على قطع الأقطار وتتقاذف الأشعار والاستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمنه " ويحاول ان يميز بين الشخص الجالس في محله على طريق النقل قد تكون ناقصة او محرفة وبين ذلك الذي جعل عمره مقسماً بين الإسفار من خلال الوقوف على الحقائق .

والمقدسي[1] في أحسن التقاسيم يبين أهمية رحلته فيقول (وعلمت انه باب لابد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه للصالحين والأخيار اذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء وتطلبه القضاة والفقهاء ، وتحبه العامة والرؤساء وينتفع به كل مسافر ويحظى به كل تاجر وما تم لي جمعه إلا بعد جولاني في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء واختلافي الى الأدباء والقراء وكتبة الحديث 0000 والمعاشرة مع كل احد) .

تكمن أهمية الرحلة لدى الرحالة هي انهم عندما يدخلوا إقليماً فهم لا يكتفون بالمشاهدة وانما السؤال والبحث وغيرها ثم البحث في بطون الكتب عن ذلك الإقليم لتأتي المعلومات دقيقة ، واكتسبوا الرحالة وأمدتهم الرحلات الكثير من المعلومات عن أوربا وأقاليم عديدة عن البلدان الإسلامية ومن خلال مشاهداتهم ، ان الرحلة الجغرافية ساهمت بتوضيح ما قدمه الجغرافيون وأكدت على المنهجية لكل عالم من خلال المشاهدة والمعاينة وان المنهج الذي جاءوا به في كتبهم كان صحيحاً صادقاً من خلال الجغرافية الوصفية ، وإلا اذا كان جالس في محله لما جاءت المعلومات صحيحة وهذا ما كان شائعاً في القرن الثاني والثالث والرابع ، وبالتالي انعكست الرحلات تلك على مدارك الجغرافيون بسبب اتساع دائرة اتصالهم مع الناس سواء

(1) أحسن التقاسيم ، ص 8 .

داخل الأمة او خارجها والاتصال مع أناس من أمم مختلفة في العادات والتقاليد وغيرها من العلوم .

وأهمية الرحلة انعكست ايضاعلى الأدب الجغرافي لدى الجغرافين عموماً مستخدمين فلسفة أدبية جغرافية ووجدنا هذا التأثير في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) عند ابو حيان التوحيدي الذي رحل إلى مختلف الأقاليم العربية الإسلامية فجاء كتابه موسوعة أدبية جغرافية فلسفية تصور بأسلوب نثري بليغ وتضم معلومات قيمة عن العلوم العقلية والاجتماعية للمجتمع الإسلامي واحتوى على كثير من المسائل التي تتصل بالإنسان والعلم والأدب والمجتمع من عادات وتقاليد ولغة ومختلف الموضوعات التي تندرج تحت الانثوجرافية دراسة ووصف عادات وتقاليد وقيم الشعوب وهذه المصطلحات يطلق عليه بالجغرافية البشرية .

أنواع الجغرافية عند العرب :

عندما تطبق المادة الحديثة للجغرافية على المادة المتراكمة التي وصلت الينا عن طريق الجغرافيين العرب سوف نصل إلى أنواع كثيرة من الجغرافية مستندين في ذلك إلى العديد من المعلومات ، في تلك المواضيع تأتي في مقدمتها العلوم الجغرافية التي درسها الجغرافيين العرب وهناك أنواع عديدة من الجغرافية عرفها العرب منها:

الجغرافية الفلكية او الرياضية :

هناك أسباب قديمة معروفة قبل الإسلام للاهتمام بالسير في الصحراء ومعرفة الرياح والأمطار ، اما في العصر الإسلامي ارتبط بعض أحكام الدين الإسلامي بها وجعل المسلمون يهتمون بها ومعرفة مواقع البلدان بسبب اختلاف أوقات الصلاة فيما بينها وسمة القبلة وأحكام الصوم والأعياد التي استندت إلى رؤية الهلال ومعرفة حساب الازياج التي تعني الجداول الفلكية التي يتم بواسطتها حساب المتغيرات الفلكية والتعرف عليها والآيات القرآنية الكثيرة التي تضمنت الإشارة إلى الكواكب والشمس والقمر والأجرام السماوية الأخرى دعت الناس إلى التذكر والتأمل والاشتغال بالأمور الفلكية كل هذه الأمور أسهمت في الاهتمام بها .

فعلم الفلك يعد من أول العلوم التي لقيت عناية العباسيين بها اذا تحدثنا عن ازدهار الحضارة في العصر العباسي كانت بغداد مركزاً مهماً لمباحث علم الفلك وضمت الدولة العباسية العديد من المراصد الفلكية احدها في مراغا في بلاد فارس وأخرى في سامراء 000 الخ فالمراصد كانت قائمة في أجزاء الدولة الإسلامية كافة لذلك يقول غوستاف لوبون ان العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله وانطلاقاً من هذا نلاحظ ان الخلفاء العباسيين قد اهتموا بترجمة

الكتب الفلكية عموماً وانشأ في زمن الرشيد والمأمون دار علم – بيت الحكمة – لغرض ترجمة علوم الأوائل[1].

وفي زمن العباسين ونظراً لاهتمام العباسيين به فقد برع علماء في مجال الفلك والجغرافية الفلكية مثل أبناء موسى بن شاكر الذين ظهروا في عهد المأمون وهم احمد ومحمد وحسن بن موسى بن شاكر استطاعوا قياس محيط الأرض بناء على طلب المأمون ايضا استطاعوا قياس محلة باب الطاق بالنسبة لخطوط لعرض فكانت (33) درجة وعشرين دقيقة شمالاً كذلك استطاعوا قياس خط عرض مدينة سامراء فكان (34) درجة واثنا عشر دقيقة شمالاً[2] .

ولو نلاحظ الآن موقع سامراء على الخارطة نلاحظ مدى الدقة بين الحسابين ايضا ظهر (البتاني) وهو من كبار علماء الفلك الذين بحثوا بالجغرافية الفلكية فقد اشتهر أبناء موسى بن شاكر بقياس محيط الأرض في زمن المأمون وتناولته كتب التراجم آنذاك فأبن خلكان في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان الذي تناول فيه قياس محيط الأرض الذي جاء بناءاً على طلب المأمون معروف ابن المأمون كان مغرم بالاطلاع على كتب علوم الأوائل فلك ورياضيات وفلسفة 000 الخ . وكان قد سمع ان محيط الأرض بناء على قياس الإغريق لها يعادل (8) آلاف فرسخ الذي يساوي (24) ألف ميل[3] .

فأراد المأمون التأكد من صحة هذا القياس فطلب من أبناء موسى ان يقوموا بذلك وقد نقل ابن خلكان كيف قام هؤلاء بذلك بدقة والذي يغير دليل على مدى الاطلاع العلمي ومدى المعرفة الجغرافية للعرب وتقرير الحساب بدقة بأجهزة ذلك الوقت بالقياس مع الآن كما جاء في رواية ابن خلكان .

ان المأمون لما سمع ان محيط الأرض (8) آلاف فرسخ وكل فرسخ يساوي 3 أميال لذلك فان 3×8 = 24 ألف ميل محيط الأرض .

هذا يعني ان الأرض اذا اخذ نقطة منها في مكان ما وثبت بوتد مربوط به حبل وأدير ذلك الحبل حتى يصل النقطة الثانية يساوي (24) ألف ميل .

فقد حاولوا في البداية البحث عن ارض منبسطة في العراق فكان هناك منطقتين احدهما في صحراء الكوفة والثاني في منطقة سنجار ، وكلا المنطقتين يقعان في غرب العراق ولما كان الصحراء الذي في سنجار أكثر انفتاحاً واتساعاً قام أبناء موسى بتحديد نقطة ما على الأرض وضربوا في مركزها وتداً وبواسطة الآلات الفلكية حاولوا ان يقيسوا ارتفاع القطب من هذه النقطة

---

(1) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج1 ، ص 85 .

(2) حبيب الراوي ، شكل الأرض ، ص 21 .

(3) حبيب الراوي ، شكل الأرض ، ص 22 .

كأساس لحسابهم وربطوا هذا الوتد بحبل وساروا نحو الشمال حتى انتهى الحبل ثم ضربوا وتداً أخر وقاسوا ارتفاع القطب من هناك ووجدوا ان الحبل الممتد من المركز حتى الوتد الثاني يساوي 2 66 ميل وان القطب ارتفع خلال هذه المسافة بين
3

الوتد الأول والثاني درجة واحدة أي انه كل 2 66 ميل يزداد ارتفاع القطب درجة واحدة
3

وكرروا نفس العملية هذه المرة من جهة الجنوب فوجدوا ان المسافة من المركز حتى انتهاء الحبل قد قلت درجته درجة واحدة .

وبهذه الطريقة تأكد أبناء موسى من ان قياس محيط الأرض يساوي (8) آلاف فرسخ هذه العملية أعاد أبناء موسى تكرارها في صحراء الكوفة ووجدوا القياس مقارباً لها وهذا مثال بارز على نشاط الجغرافية الفلكية في عهد العباسيين[1] .

الفرغاني نسبة الى فرغانه وهو احمد بن محمد بن كثير عاش في النصف الأول من (ق3هـ) كان من أوائل الجغرافيين الفلكيين وله كتاب سماع (الحركات السماوية وجوامع علم النجوم) وهو من أولى المصنفات العربية في الفلك يحتوي على موجز لعلم الفلك كما أرفق فيه جدولاً يبين الأماكن الهامة موزعة على الأقاليم المعروفة وقد ترجم إلى العديد من اللغات الأوربية .

ان العلماء العرب الذين درجوا ضمن المدرسة الجغرافية الفلكية والرياضية كانوا أصحاب الفكر الجغرافي والمتأثرين بالمدرسة اليونانية أمثال الخوارزمي وابن خرداذبة واليعقوبي وابن رسته وقدامة بن جعفر ، وهؤلاء اخذوا معارفهم الجغرافية من اليونانيين مباشرة او طريق ترجمات كتبهم او الخلاصات السريانية والارمنية[2] ولذلك كان الخوارزمي احد هؤلاء :

الخوارزمي :

هو أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي ، عاش بين سنة (164هـ/780 م) وسنة (235هـ/ 849 م) في بغداد وحصل على علومه من كبار علماء بغداد واشتهر بنبوغه في العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية حتى لقب بالأستاذ لعلمه الوفير وحكمته ، حتى دفع بالمأمون

(1) حربي عباس عطيتو محمود وحسان حلاق ، العلوم عند العرب أصولها وملامحها الحضارية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1995 ، ص 344 .

(2) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 17 .

إلى تعينه رئيساً لبيت الحكمة ووضع تحت إدارته الأموال والطلبة والحلقات الدراسية لتكون بيت الحكمة منبع العلوم والمعارف بغداد[1] .

واهتم في إدارته لبيت الحكمة إلى الاهتمام بالعلوم اليونانية ولاسيما خلال ترجمته للمؤلفات الشهيرة من الفكر والعلوم اليونانية ولاسيما الجبر والهندسة والاطلاع على المعادلات وحلولها حتى ذهب بعض العلماء ان جعل الخوارزمي هو مؤسس علم الجبر ولعلاقة علم الفلك والرياضيات بالجغرافية جعل منه احد المهتمين بعلم الجغرافية ودراستها على أسس علمية ورياضية ، وهو الذي اختصر كتاب (المجسطي) لبطليموس وكان بين مؤلفاته في الجغرافية كتابه (صورة الأرض) [2] .

وتناول الخوارزمي دراسة الأرض وحسب منهجية الأقاليم السبعة وحسب درجات العرض وهذا المنهج اليوناني المعروف آنذاك[3] ، وتجدر الإشارة إلى الخوارزمي كان ملتزماً بنظرية بطليموس ولاسيما كتابه (المدخل إلى الجغرافيا) حتى ذهب البعض إلى جعل كتاب الخوارزمي (صورة الأرض) اختصاراً مع بعض التعديلات والتصليحات عن بطليموس وكذلك التزامه بالجداول الفلكية (الزيجات) ، إلا انه كان أكثر جرأة عن تقسيمه للأقاليم وابتعاده عن بطليموس وكذلك الأصالة في خرائطه التي اختلفت كثيراً عن العهود السابقة ، وحاول الخوارزمي الدمج بين الخارطة المأمونية وخارطة بطليموس أي انه حاول الاستفادة من العلوم اليونانية وخبرات العرب وعلومهم في خدمة العلم والمعرفة ويعد كتابه (صورة الأرض) بأنه أقدم اثر جغرافي عربي[4] .

الجغرافية الوصفية الإقليمية :

ومن الأنواع الجغرافية الأخرى هو الجغرافية الوصفية الإقليمية وهو نوع آخر من أنواع الجغرافية ، ففي القرن الرابع كل أصحاب الفكر الجغرافي في المدرسة الجغرافية الذي وصلت الينا كتبهم كان منهجهم وهو وصف المسالك والمماليك والطرق والشعوب التي فيها هذه الدراسة التوسعية تشمل كل الكتب الجغرافية التي وصلت الينا وأطلق على هذا المنهج في الوقت الحاضر بما يعرف الآن بالاثنوجرافية والمقصود بذلك هو عملية وصف لكل نواحي للأقاليم

---

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 62 .

(2) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 63 ، الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 100 .

(3) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ج1 ، ص 101 .

(4) نفسه ، ج1 ، ص 103 .

والبلدان التي وصل اليها الجغرافيون من أسلوب الحياة والعادات والتقاليد وارتبط بهذا المصطلح مصطلح اخر هو الاثنولوجية وهي عملية دراسة تحليلية للاثنوجرافية ، كيف ؟

عندما يذكر لنا الجغرافيون القدامى بان لغة العرب هي لغة القران الكريم التي تكون حروفها الأبجدية اذاً هي محلية وصف للغة التي يتحدث بها العرب دور الاثنولوجيا هو عملية تحليل لهذه اللغة ، أي انها تحاول البحث في جذورها وان أصولها يرجع إلى أقلام سادة الجزيرة من القبائل المختلفة اتحدت جميعها قبل الإسلام أي انها حللت أصول اللغة العربية ، ومثال آخر الاثنوجغرافية عندما تتحدث عن ديانة العرب قبل الإسلام – الوثنية – كيف ان هذه الديانة تقربهم زلفى إلى الله فواجب الاثنولوجيا هو دراسة أصول تلك الديانة ومن أين جاءت وما هي هذه الديانة .

وباجتماع الاثنوجرافية مع الاثنولوجيا تتكون علم الانثروبولوجية (علم الأجناس) وهو تحلية دراسة شاملة للإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً ويلاحظ إتباع اصطلاحات عدة من الجغرافية الوصفية التي كانت شائعة في القرن الرابع هـ فالاثنوجرافية تعني الوصفية والاثنولوجرافيا تعني الدراسة التحليلية هذا النوع الذي كان منهجاً شائعاً تطلب ظروف آنذاك إلى إتباعه يأتي في مقدمة ذلك الحاجة إلى معرفة طبائع المجتمعات العربية فظهرت الحاجة إلى وصف العالم الإسلامي (عربي غير عربي) والرغبة في معرفة طبائع تلك الشعوب وعاداتها من اجل السيطرة على إدارتها وعلى اقتصادها ، لان النظام الإداري كما هو معروف قد تجمع خيوطه في بغداد الذي كان مركزاً للدولة الإسلامية فتطلب معرفة الأقاليم والممالك والمسالك فجاء هذا المنهج الوصفي ليحقق هذه الرغبة ويخدم مصالح الدولة التي كانت بحاجة إلى معلومات عن تلك الأقاليم ، هذا المنهج نلاحظه بشكل جلي عند جغرافيو القرن الرابع والخامس والسادس . فمثلاً ابن جبير الرحالة الأندلسي المعروف انه رحل من الأندلس إلى المشرق يتحدث في رحلته عما شاهده وسمعه فوصف لنا المظاهر الطبيعية التي شاهدها مثل عواصف البحر المتوسط والجبال ذات البراكين في صقلية ووصف نهر النيل والبحر الأحمر وما فيه من اللؤلؤ والمرجان وأشار إلى الوديان والصهاريج المملوءة بمياه الأمطار بين نجد والعراق لأنها تحدد المسالك لتي يسلكها التجار والحجاج والمسافرين ولم ينسى في هذا ذكره لمشروع زبيدة زوجة الرشيد عندما أوصلت المياه إلى مكة عن طريق حفر الآبار ليستفيد منه الحجاج الذاهبون إلى مكة[1] .

وقدم وصفاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية للمناطق التي زارها فنراه يتحدث أثناء دخوله العراق سنة (585هـ/ 1189م) للمدارس التي شاهدها في بغداد حيث يصف مدارس

(1) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، الصفحات ، 44 و 45 و 53 و 59 و 72 .

الوعاظ في بغداد والمدارس التي شاهدها في الموصل مثلاً يقول يبلغ عددها نحو (16) او أكثر على دجلة وهي كالقصور المشرفة ووصف الأسواق وأنواعها وأنواع المحاصيل فيها والشيء نفسه نلاحظه عند ابو حوقل في صورة الأرض اذ يبين في كتابه هذا ما شاهده في رحلته هذا فيذكر مواقع المدن بالنسبة للأقاليم وتخطيطها وجوامعها ومدارسها وأسواقها مثلاً عندما يصف مكة يذكر بانها تقع بين شعاب الجبل وأبنيتها من الحجارة ويتطرق إلى الكعبة ووصف أبوابها وموضع الحجر الأسود ومقام إبراهيم فيه ويصف موقع دار الندوة الذي كان موجوداً قبل الإسلام وأشار إلى المسافة بين مكة والمدينة وبقية المدن الإسلامية .

لتسهيل مهمة المسلمين أثناء فريضة الحج ويلاحظ المنهج الوصفي عند المقدسي[1] حيث يذكر بأنه ذكر المدن وذكر البلدان ومدنها المشهورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة من الناس واختلاف أهل البلدان في لغاتهم وأحوالهم وألوانهم ومذاهبهم ثم يتطرق إلى الجوانب الاقتصادية من وصف المكاييل والموازيين والنقود وبذلك يلاحظ على المعلومات الوصفية الواردة في كتاب المقدسي فيها إشارة إلى الجوانب المادية والحضارية والمعنوية فيها نظرة تكميلية يجمع بين البيئة والإنسان .

واثر البيئة على الإنسان في جوانبه الحياتية والمعاشية فيه قيمة علمية لتلك المعلومات الوصفية التي قدمها أثناء رحلته وتجواله وهنا نلاحظ ان المنهج الوصفي القائم عند الجغرافي معلوماً في ذلك الوقت .

الجغرافية الاقتصادية :

تعتبر الجغرافية الاقتصادية من ابرز المواضيع وأهمها والسبب في ذلك يعود إلى كون النشاط الاقتصادي بحد ذاته يعكس تطور البلد ، والسبب الثاني هو ان النشاط الاقتصادي في بلد ما يتبعه نشاط فكري واجتماعي وثقافي لأنه كما يقول ابن خلدون[2] حتى اذا ما استقر المجتمع انصرفت إلى الصنايع والعمران ، من هذا المنطلق فان الأهمية الاقتصادية والفعاليات الاقتصادية في كل بلد من البلدان التي زارها الجغرافيون القدامى فانهم تنبهوا إلى تلك الفعاليات الاقتصادية ووصفوها وصفاً دقيقاً ، وابرز من يلاحظ هذا المنهج في كتبهم هو ابن حوقل في صورة الأرض التي نقل لنا أخباراً عن البلدان التي زارها في صورة الأرض ويورد جملة عوامل اقتصادية لكل بلد وواصفا موارد اقتصادية وزراعية للبلدان التي زارها ، فالأندلس مثلاً يقول

(1) أحسن التقاسيم ، الصفحات ، 115 و 152 و 190 و 248 و 274 و 296 و 323 و 347 .

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 35 .

انها كانت ثمينة بالمعادن مثل الزئبق والحديد والرصاص ، بينما يوجد الذهب بمصر ويكثر الديباج في مدينة تستر في بلاد فارس[1] .

والشيء الآخر وصف الحاصلات الزراعية للبلدان التي زارها فهو يوصف منتجات الحنطة والشعير في الموصل وقدر أقيامها بالدنانير ومقدار الكميات المنتجة وذكر كذلك أنواع الأسواق واختصاص كل سوق بحرفة معينة ، فمثلاً في صقلية توجد أسواق للزياتين (الزيت) وللحدادين وغيرها وكل سوق يختص بمهنة معينة ، ليس هذا فقط فانه يصف عدد الحوانيت والدكاكين في كل سوق ، فمثلاً يقول ان أسواق الموصل المتخصصة كل منها في مهنة تصل دكاكينها إلى مئة حانوت او أكثر ليس هذا فقط وانما يتعرض ايضا إلى الوسائل التي تضع بها الحبوب (المطاحن) فيصف مثل هذه المطاحن المنصوبة على نهر دجلة في الموصل والتي تعرف باسم العروب (عربة) بان كل واحدة منها تتكون من حجرين مربوطتين بسلاسل حديدية وتدار بالماء وكل عربة تطحن في الليل والنهار ما يقارب (مئة كيلو) والتي كانت تصدر عن طريق الماء إلى بغداد .

والجدير بالملاحظة ان هؤلاء الجغرافيين الذين تعرضوا للمسائل الاقتصادية هم في الأساس اشتغلوا بالتجارة لذلك فان نظرتهم كانت نظرة دقيقة إلى ابسط الأمور الاقتصادية لذلك نراهم يصفون النقود المستخدمة في البلدان التي زاروها ففي المشرق كانت تستخدم الدنانير القندهارية نسبة إلى مدينة قندهار في مدينة المنصورة في بلاد السند ، اما سمرقند فقد كانت تستخدم الدراهم المحمدية نسبة إلى محمد بن المهدي الذي نزل في تلك المنطقة ، ودراهم غطريفية[2] .

الجغرافية البشرية :

ان مواضيع الجغرافية البشرية لم تأتي متصلة مع بعضها الآخر في كتب الجغرافية عند القدماء ، وانما جاء داخل المواضيع الجغرافية الأخرى . فالمعلومات التي قدمها الجغرافي العربي كانت معلومات متنوعة كم متراكم وخليط من المعلومات الجغرافية وكما هو معروف ان الجغرافيون القدماء لم يكتفوا بوصف المدن والسكان بل تطرقوا الى دراسة سكان المدن التي زاروها دراسة (انثروبولجية) أي دراسة الإنسان من جميع جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والطبيعية . فالجغرافية البشرية التي استنبطت من الكتب القديمة وهي تتضمن دراسة

(1) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص10

(2) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص 26 .

لعادات وتقاليد واديان وطبائع ولغات تلك الأقوام التي تسكن في المناطق التي زارها أولئك الجغرافيون القدامى السبب في هذا الاهتمام يعود إلى عاملين :-

الأول : وهو الاطلاع على الشعوب الإسلامية والغير الإسلامية والعربية والغير العربية فأبن جبير[1] وهو أندلسي الأصل عندما رحل إلى الشرق بهر – تعجب– لما رآه من عادات وتقاليد وثقافات تختلف عن أهل الأندلس والمغرب ثم رأى عادات وتقاليد وثقافات في بلاد فارس تختلف عن البلاد المغرب العربي .

الثاني : هو حاجة الدولة إلى مثل هذه المعلومات ويعرف الجميع انه في العصر العباسي اتسعت الدولة العربية الإسلامية بين الشرق والغرب وضمت شعوباً وقبائلاً متنوعة وأجناس عديدة كانت الدولة بحاجة إلى مثل هذه المعلومات لغرض السيطرة على تلك الشعوب سيطرة إدارية مالية سياسية عسكرية اقتصادية 000 الخ لذلك ما جاء به أولئك الرحالة كان ذو فائدة كبيرة بالنسبة للدولة وإحصاء مقدار خراج كل إقليم من البلاد الإسلامية[2] .

ويلاحظ هذا المنهج الجغرافي البشري او المعلومات المتعلقة بها عند ابن حوقل في صورة الأرض وهو من جغرافي القرن الرابع وكذلك يلاحظ عند ابن جبير وهو من رحالة النصف الثاني من القرن السادس رحل نحو المشرق في ثلاث رحلات كان أبرزها التي قام بها في (570هـ /1174 م) منطلقاً من الأندلس عبر المغرب ومصر ثم الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ثم عرج على العراق ثم بلاد فارس أي ان رحلته استغرق قطع الشرق والغرب في البلاد الإسلامية .

وابن حوقل في صورة الأرض نلاحظ انه قدم معلومات كثيرة في مختلف أنواع الجغرافية فيما يتعلق بالجغرافية البشرية قدم معلومات كثيرة عن السكان وكل ما يتعلق بلغاتهم وديانتهم وعاداتهم وتقليدهم فمثلاً وصف سكان مدينة الفسطاط بمصر بانهم من القبائل العربية ولهم بها خططاً وكل ما تحويها من مرافق ومساجد وجوامع وأسواق وشوارع ومحلات .

وتحدث ابن حوقل بنفس الطريقة عن القبائل التي سكنت العراق وخططها في كل مدينة من المدن وفصّل حديثه ايضا عن قبائل البربر في المغرب . أشار ايضا إلى لغة الأقوام والشعوب التي زارها فيذكر مثلاً ان أهل الاحواز يتكلمون العربية إلى جانب الفارسية ثم يصف لغة أهل الخرز بأنها لغة غريبة لا تشاركهم فيها امة من الأمم ولم ينس ابن حوقل في هذا الجانب ملابس الأقوام فيذكر ان العامة والسلطان في الأندلس يلبسون الملابس من الكتان في حين أهل برقة يتميزون بلبس الثياب الحمراء ويتعرض ابن حوقل كذلك للأديان والأقوام .

---

(1) رحلة ابن جبير ، الصفحات ، 165 و 175 و 190 و 220 .

(2) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، الصفحات ، 20 و 35 و 111 و 162 و 163 .

كقوله عن أهل المنصورة في بلاد السند بانهم ينتمون للإسلام في حين يذكر ان أهل مدينة حران في بلاد الشام بان غالبيتهم من الصابئة في حين تصف البعض من أهل المغرب بانهم من المعتزلة والبعض الآخر من الخوارج ، فقد ظل الخوارج يتمركزون في العراق وبلاد الشام حتى جاء حسين بن حمدان الذي دخل في صراع عنيف معهم وبمساعدة الخلافة قضى على نفوذهم هناك فهرب من نجى منهم إلى البحرين واليمن والمغرب .

كما يتعرض ابن حوقل الى طبائع الشعوب التي خالطها واثر المناخ عليها فيذكر ان أهل الاحواز يتميزون بالشراسة والمنافسة فيما بينهم في ابسط الأمور والغالب عليهم النحافة وصفر الوجوه .

اما ابن جبير وهو مثال آخر عما احتواه كتابه عن معلومات بشرية تلاحظ انه أشار إلى الاستيطان البشري وكثافته في منطقة الدلتا وقلته في الصحاري فيقول ان دلتا النيل فيها قرى ومدن كثيرة خاصة بين الإسكندرية والقاهرة مما اضطره إلى ذكر المدن الكبيرة فقط دون الصغيرة وأشار إلى كثافة الاستيطان في سهول العراق والشام المحاطة بالأنهار وأشار ايضا إلى قلة الاستيطان البشري في المناطق الصحراوية فيذكر انه لم يجد سكاناً بين مكة والعراق باستثناء المناطق التي فيها آبار التي كانت قد حفرتها زبيدة زوجة الرشيد او البرك والواحات .

ايضا يلاحظ انه قسم المناطق في البلدان التي زارها حسب أهميتها جعل في المرتبة الأولى منها المدن التي تتميز بكثرة سكانها واتساع المباني وازدهارها الاقتصادي واحتوائها على المدارس والمساجد والأسواق والبيمارستانات – المستشفيات – والحمامات مثل القاهرة وبغداد والموصل ودمشق 000 الخ

اما النوع الثاني سماه البلدة ، وتكون هذه اصغر من المدينة واكبر من القرية فيها أسواق وسائر ما يحتاج اليه الناس لكل أسواقها وصيانتها ونشاطها الاقتصادي تكون اقل من المدينة مثل مدينة منفلوط في مصر . النوع الثالث هو القرى حيث اعتبر القرية بأنها تتميز بسعة المساحة وقلة سكانها لان فيها مزارع وحقول وبساتين لذلك يجب ان تكون مساحتها واسعة . أشار كذلك إلى القبائل التي رآها أثناء زيارته للبلدان مثل قبيلة البجاة ويقول انهم كانوا يسكنون الجبال مع سلطانهم وقبائل السرو في اليمن وكانوا يسكنون الجبال الحصينة – السراة – ويتاجرون بمحاصيلها التي يحملونها إلى مكة كل عام[1] .

ان دراسة المجتمع الإنساني كان من أوائل اهتمام العلماء العرب المسلمين والاهتمام بالتغيرات التي تطرأ على البشر من اختلاف الأجناس واللغات كلها كان في خضم الاهتمام

---

(1) وللمزيد حول الجغرافية البشرية ينظر ؛ مايكل ، جغرافية دار الإسلام البشرية ، ج1 ، ق1 ، ص 140–150 .

والدراسة والتدوين ، وكان علماء الجغرافيين العرب أكثر اهتماماً بدراسة المجتمعات والظواهر البشرية من العادات والتقاليد والأجناس ، إلا ان عبد الرحمن بن محمد المعروف بأبن خلدون يعد من الذين وضع القوانين والأسس العلمية في دراسة المجتمع ويعد من أعلام الجغرافية البشرية بسبب ما تضمن كتبه عن دراسة تحليلية للبشرية .

ابن خلدون :

وهو ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون يعود نسبه إلى كنده عرب حضرموت وشارك أجداده في الجيش العربي عند الفتح الإسلامي للأندلس واستقروا في مدنها قرمونة واشبيلية وبسقوط الأخيرة انتقلت الأسرة إلى المغرب العربي واستقروا في تونس حيث ولد ابن خلدون سنة (732هـ/1332م) اهتم منذ صغره بالعلم والعلماء وشغل مناصب عددية في شمال أفريقيا إلا انه أراد لنفسه الاستقلالية عن الدوائر السياسية ، واستقر في ضواحي مدينة وهران لأجل التأليف ومتابعة العلوم والمعارف[1] ، وانعكست هذه الاهتمامات إلى مؤلفات عديدة أشهرها كتابه المقدمة ومن ثم كتابه الآخر (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر).

ويعد ابن خلدون من أوائل الذين عرض نظريات في علم الاجتماع وفيما تذهب الدراسات إلى ان مؤسس علم الاجتماع المستشرق الفرنسي أوكست كنت الذي عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي ، في حين يجعله ساطع الحصري صاحب لقب مؤسس علم الاجتماع ، لأنه كان من الأوائل الذين درسوا الظواهر الاجتماعية والبشرية على أسس علمية دقيقة حيث اثبت على ان الظواهر العمرانية وتقدمها وزوالها بأنها محددة بقوانين وكذلك تعرض إلى الحوادث الاجتماعية وتقلبات المجتمعات وتغيراتها كلها حددها بقوانين يمكن تطبيقها على المجتمعات ، وكذلك فسر الكثير من التغيرات الاجتماعية والسياسية تفسيراً اقتصادياً ، وكان مهتماً اهتماماً بالغاً في الجغرافية البشرية فكان يبرر اختلاف ألوان البشر وجسومهم وميولهم ونشاطهم وصفاتهم الجسمانية والعقلية إلى اختلاف البيئة الجغرافية وتأثيراتها على الصفات البشرية ، وكذلك اثر البيئة الطبيعية من سطح ومناخ ونبات على الحياة البشرية والتي على أساسها قامت الجغرافية البشرية ، وتكلم ابن خلدون عن الطبيعة من جبال وصحاري وعن شكل الكرة الأرضية وكان يمتلك معلومات جغرافية لا تقل عن الجغرافيين العرب الذين سبقوه ، وتميز ابن خلدون كونه كان يمتلك معلومات واسعة واطلاع على أخبار الذين سبقوه من العلماء العرب المسلمين حول أحوال البشر وكذلك استغل خبراته في مجال القضاء وأسفاره الكثيرة وعن

(1) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ج1 ، ص 439-342 .

الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعالم العربي الإسلامي ، وكذلك عالج بمنهجية آثار الظواهر الطبيعية والبيئية السلبية والايجابية على حياة الشعوب من حيث نظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية والعقلية[1] .

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 214–218 .

الفصل الثالث

رسم الخرائط عند العرب المسلمين

فن رسم الخرائط (المصورات الجغرافية) :

كما هو معروف ان العرب المسلمين لم يطلقوا كلمة خريطة على مصوراتهم الجغرافية وهذا واضح من خلال عناوين كتاباتهم في القرن الخامس وقبل هذا التاريخ ومن خلال أنحاء تلك المصورات التي وردت في كتب أخرى مثل المسعودي في مروج الذهب بأنه لم يعرف باسم الخرائط وانما المصورات لان مصطلح الخريطة يعني شيء آخر فعند العرب يعني الوعاء المصنوع من الجلد الذي يوضع فيه الكتب والملفات والحاجات الأخرى . اما الخرائط التي تعرف الآن كانت تسمى مصورات لذلك فان الكتب التي وصلت الينا تعني صورة الأرض مثل ابو حوقل والمسعودي في الصورة المأمونية او رسم المعمورة .

رسم الخرائط عن المسلمين :

استخدم العرب منذ البداية الأولى على الرسومات التي تتعلق بالجغرافية مصطلح (الصورة) او (الرسم) و (لوح الترسيم) و(لوح الرسم) و (الجغرافيا) للدلالة على الخريطة ، ويعرف ايضا بفن الكارتوغرافيا (أي رسم المصورات الجغرافية) ، وتعني في اللغة الخريطة بالفتح وعاء من الجلد لأغراض مختلفة[1] .

وساهموا العرب في رسومات عديدة ونماذج مختلفة معتمدين على مناهج مختلفة في رسم المصورات وتدوين المعلومات لعل في ابرز هذه الخرائط :

1. الخرائط العربية الفلكية :

وهي من الأنماط التي ظهرت في بداية الفكر الجغرافي العربي متأثرين بالفكر الإغريقي والروماني ، حيث اعتمدوا في رسوماتهم على الحسابات الفلكية[2] .

2. الخارطة المأمونية :

وتعد من المدرسة الفلكية وسميت بالمأمونية نسبة الى رعاية الخليفة العباسي المأمون الذي اهتم بعلم الجغرافية وخاصة المصورات والرسومات بسبب حاجة الدولة الى معلومات

---

(1) الرازي ، مختار الصحاح ، 173 .

(2) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 65 .

اقتصادية أخرى سياسية لإدارة البلاد[1] ، واتبعوا هؤلاء العلماء على الأسلوب العلمي الرياضي لتحديد المواقع عن طريق خطوط الطول والعرض .

3. **الخرائط الإقليمية :**

اهتمت هذه الخرائط على المصورات دون الاهتمام الى دقة المسافات على الأرض وكان الجغرافيون العرب الإقليميون قد اعتمدوا على رسومات وتمثيل الحقائق بالمصورات وضربوا القواعد العلمية عرض الحائط غير عابهين بالدقة في التفاصيل وعلى رأسهم البلخي والاصطخري وأبن حوقل والمقدسي[2] .

ونالت اهتمام الباحثين هذه الخرائط ولاسيما لدى لغربيين حيث اهتم المستشرق الألماني كونراد مولر Muller في جمع تلك الخرائط ونشرها في مجلد خاص تحت عنوان (الخرائط العربية) وسماها (أطلس الإسلام) ويعتقد مولر ان أبا زيد البلخي أول من عني بوضع الخرائط الإسلامية من كتابه الجغرافي المفقود (صور الأقاليم) او (الأشكال) او (المسالم والممالك) ومن ثم اتبعه علماء آخرون هذا المنهج في الرسومات العربية أمثال الاصطخري وابن حوقل ، حيث انهم ضموا في كتبهم صور عديدة لمصورات ورسومات توصف الأماكن والبقاع[3] .

4. **الخارطة الادريسية :**

وهي من الأنماط المتطورة عن الأنماط السابقة في علم الكارتوغرافيا العربية ، فالإدريسي اختلف في خرائطه عن خرائط رواد المدرسة الإقليمية فخرائطه لم يعتبر جزءاً من أطلس الإسلام وتلتزم خرائط الإدريسي بمقياس الرسم وبتحديد مواضع خطوط الطول والعرض كما تلتزم بالشكل الحقيقي لكل منطقة وانه تأثر بخرائط بطليموس في مواضع كثيرة إلا انه يعتبر مجدداً له . ومتفوقاً عليه في أماكن أخرى[4] . فقد رسم خارطتين الأولى على كرة معدنية من الفضة كتب عليها كل ما يعرفه عن البلدان إلا انها فقدت ، اما الثانية على شكل مستطيل من الفضة تبلغ

---

(1) اندريه مايكل ، جغرافية دار الإسلام البشرية ، ترجمة إبراهيم خوري ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1983 ، ج1 ، ق1 ، ص 169 .

(2) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 65 .

(3) المرجع نفسه ، ص 66 .

(4) نفسه ، ص 69 .

أبعاده 14×10 أقدام ووزنه (400) رطل رومي وهي من كبار خرائط العالم وقد ذكر فيها الأقاليم وأمطارها ومواقع الأنهار والعمائر والطرقات والأميال والشواهد والمسافات[1] .

وفي القرن الثالث والقرون اللاحقة كانت هذه المسميات تطلق على الخرائط التي وردت ، اما متفردة او ضمن الكتب الجغرافية ، اما الأسباب التي أدت إلى تطور فن رسم الخرائط كثيرة .

عوامل تطور فن رسم الخرائط :

1- العامل الاقتصادي :

رغبة المسلمين في مسح الأراضي الزراعية في مختلف الأقطار العربية الإسلامية لغرض جباية الخراج لذلك تشير المصادر إلى انه في زمن المأمون وبعد اتساع الدولة فانه كان يجمع المساحين لكي يرسلهم إلى الأقاليم لكي يمسحوا مساحة تلك الأراضي لتحديد أقيامها وان الوحدة المستلمة لتلك هو الجريب وهو مساحة الأرض الذي طوله (60) ذراعاً فالجريب الواحد هو مساحة الأرض التي تقدر (3600) ذراع مربع مساحة الجريب الواحد فتمسح تلك الأراضي وعلى ضوءها تقدر مقدار الخراج على كل جريب قمح او شعير او شجر مثمر .

2- **العامل السياسي :**

الحاجة ولاسيما بعد القرن الثالث الهجري لان توضع مصورات لهذه الأراضي ولم ترد إشارة إلى وجود مصورات في العهد الراشدي لان الدولة كانت مساحتها محددة ولكن بعد ان اتسعت في العهد العباسي وشملت أقاليم عربية وغير عربية في الشرق والغرب اقتضت الضرورة وضع مصورات لتحديد كل إقليم بإقليمه لغرض سيطرة الدولة وإدارتها وتحديد طرق المواصلات بين الأقاليم وتحديد التأشيرات بين الأقاليم باسم الحد والحد هو الفاضل بين إقليم وإقليم وهو طريق المواصلات بين الأقاليم في نفس الوقت .

3- العامل الإداري (البريد) :

كذلك تنظيم البريد كانت وراء وع المصورات كل هذه الأمور فضلاً عن المسائل التوضيحية التي تمثل مدى إدراك الجغرافيين بتلك الأقاليم وتصويرها ويتمثل ذلك إللقاء بين الاصطخري وابن حوقل وعرض كل واحد على الآخر مصوراته أي يتمثل في رغبة كل جغرافي في رسم

(1) نفسه ، ص 70 .

خريطة يمثل في أساسه على فكره ومعلوماته الجغرافية أي على أساس مستوى معرفة ذلك الشخص بالأقاليم ودقتها تعتمد على معرفة الجغرافي بالإقليم .

هذه الأمور دفع الجغرافيين في القرن الثالث إلى الاهتمام بالمصورات الجغرافية وإرفاقها بكتبهم وهي كثيرة ولكن مصورات القرن الثالث لم تصل الينا أي واحدة منها ما عدا الأخبار التي وصلت الينا عنها في بطون كتب أخرى في مروج الذهب للمسعودي عندما وصف الصورة المأمونية التي زارها وفي كتب التاريخ أخبار مثل تلك الخرائط لكن اول ما وصل الينا يعود إلى القرن الرابع .

لذلك يمكن القول ان القرن الرابع الهجري هو نضوج وولادة الكارتوغرافية العربية بعد ان كانت في السابق معروفة فقط عن طريق الأخبار وكانت أقدم تلك الخرائط خريطة الديلم التي تعود لعهد الحجاج بن يوسف الثقفي لكنه لم يصل الينا ما عدا أخبارها ووصلت ايضاً أخبار الخريطة لتقسيم الاقطاعات في عهد المنصور إلى المناطق التي كانت تزرع بالنخيل بعد استصلاحها وذلك لفرض الخراج[1] .

اما ثابت بن قرة الحراني الفلكي (288هـ/901م) أورد عنه انه قام برسم خريطة الأرض على نسيج دبيقي نسبة إلى منطقة دبيق في مصر كانت تشتهر بصناعة نوع من الأقمشة الحريرية فثابت بن قرة الحراني رسم الأرض على هذه القطعة من القماش ولونها بألوان ثبتت بالشمع ايضا وصلت أخبارها عن طريق الكتب ،ومبادرة المأمون سنة (218هـ/833م) تعتبر أول مبادرة لرسم خريطة الأرض كاملة وسماه المسعودي بالصورة المأمونية وهي لم تصل الينا ما عدا الوصف الذي وصفه المسعودي في مروج الذهب ويبدو انه كان قد شاهدها و الصورة المأمونية التي عملت للمأمون واجتمع على صنعها عدد من حكماء عصره وصور فيه العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن المدن والأمم وهي أحسن مما تقدمها من خرائط بطليموس ومارنيوس الجغرافيين الإغريق ، والحراني هو احد الذين ترجموا جغرافيا لبطليوس[2] .

وأول المصورات (الخرائط) التي وصلت الينا من القرن الرابع الهجري هي التي رسمها ابو زيد البلخي (ت 322 هـ/ 933م) وقد وصلت تلك المصورات مع الشروحات في كتاب سماه (صورة الأقاليم) وقد وصل الينا الكتاب وفيه العديد من المصورات تعود إلى ذلك القرن وكذلك وصلت الينا مصورات أخرى لابن حوقل التي كانت عديدة وكذلك مصورات الاصطخري في المسالك والممالك ومصورات ابن خرداذبة في المسالك والممالك .

---

(1) العمد ، الحجاج ، ص 469 .

(2) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج1 ، ص 80 .

لذلك يقال ان القرن الرابع الهجري هو قمة الكارتوغرافية العربية لان المصورات التي ظهرت في هذا القرن كانت كثيرة ولان غالبيتها وصلت الينا وتميزت بالدقة والتي جاءت من خلال ما ذكره ابن حوقل في مقدمة كتابه عندما تحدث عن المصورات التي رسمها وقارن بينها وبين مصورات الاصطخري صور ارض السند فكانت مرتبكة فخلطها وصور فارس فجودها وقد صورت أذربيجان فاستحسنها ابن حوقل، ويتحدث عن خرائط الاصطخري عن الجزيرة فأجادها (أي تميزت بالجودة) في حين اخرج الاصطخري الخرائط لمصر فكانت غير دقيقة وللمغرب فكانت أكثرها خاطئة .

ومن هنا يظهر بوضوح ان جودة المصورات كان يعتمد على دقة ملاحظة الجغرافي للأقاليم الذي يرسمها ، ففي القرن السادس الهجري طور الإدريسي الخرائط بشكل كبير وألحقها في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي أهداه إلى الملك روجرز الثاني ويقدم الكتاب خريطة للعالم إضافة إلى ذلك فقد أرفق بالكتاب (70) خريطة للأقاليم المعروفة آنذاك وتعتبر خرائط الإدريسي قمة تطور فن رسم الخرائط عند العرب المسلمين[1] .

قواعد وأصول رسم الخرائط العربية :-

هي الخرائط التي وصلت الينا منذ نهاية القرن الثالث الهجري بشكل عام يمكن ان يلاحظ عليها ثلاثة ملاحظات رئيسية هي :-

الملاحظة الأولى : ان تلك الخرائط كانت لا تعتمد على مقياس رسم أي انها ترسم بدون مقياس رسم على خلاف الخرائط الحديثة التي تلاحظ في أسفل الخريطة مقياس الرسم يمثل بالسنتمترات عن كل مساحة معينة على الأرض 1سم / 10000م .

الملاحظة الثانية : ان تلك الخرائط تعتمد في دقة رسمها ومدى صحة معلوماتها على مدى معرفة ذلك الرسام (الجغرافي) الذي رسم الخريطة ، لذلك نلاحظ ان دقة هذه الخرائط في الرسم تختلف من شخص إلى آخر، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ما ذكره ابن حوقل عن نقده للخرائط الذي رسمه الاصطخري من انه رسم بلاد السند فخلطها، ويقول عن مصر بأنها فاسدة وعن المغرب كانت أكثرها خاطئة في حين خريطة بلاد فارس كانت صحيحة ،لان تلك الأقاليم قد اطلع عليها وهو اعرف بها من غيره ،وعليه فان الإقليم الذي ينتمي اليه الجغرافي والمنطقة التي يعيش فيها ذلك الجغرافي يكون أكثر اطلاعاً على تضاريسها من جبال وصحاري ومدن ومواقع تلك التضاريس .

---

(1) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 14 .

الملاحظـة الثالثـة : ان الألوان التـي كانـت تلـون بهـا الخـرائط كانـت لغـرض إظهارهـا بـالمظهر اللائـق ولـيس لإظهـار مصـطلحات الخريطـة، كمـا هـو الحـال فـي الوقـت لحاضـر فـالخرائط ومـا يوضـع عليهـا مـن الألـوان هـو انعكـاس للتضـاريس الموجـودة علـى الخريطـة ، الصـحراء بالأصـفر والجبـال بـالبني والأنهـار بـالأزرق والسـهول بالأخضـر فـالجغرافيون القدماء لـم يأخـذوا هـذا بنظـر الاعتبار .

الملاحظـة الرابعـة : فيمـا يتعلـق بالأنهـار كانـت ترسـم بشـكل مسـتقيم قليـل الانحنـاءات لـذلك كـان الجغرافيون القدماء يطلقون على النهر اسم العمود مثل عمود النيل وعمود الفرات 000 الخ وهذه الأنهار كانت تلون باللون البني الغامق فيما يتعلق بالجبال هي من المعالم في الخرائط القديمة كانت تصور على هيئة صورة مجسمة كالصورة الفوتوغرافية تلون بـالأحمر والأصفر او الرمادي وهي ألوان لا تعكس الطبيعة .

الملاحظة الخامسة : اما المدن فكانت ترسم إما بشكل دائري او بشكل قباب هرمية او مستطيلة ، اما المدن الرئيسية المشهورة مثل بغداد ودمشق القاهرة فكانت تؤشر بدائرتين متداخلتين في جوف الآخر . وكل مدينـة تلون بلون اصفر واحمر، اما البحـار فكانت تلـون بـاللون الأزرق والأخضر المائل للزرق ، اما الحدود بين الأقاليم كان يكتب بشكل كلمة حد مثل حد العراق او حد الحجاز او حد قزوين وهو يعكس الحدود في الوقت الحاضر المتمثلة بالنقاط .

الملاحظـة السادسـة : اما ما يتعلق بطرق المواصلات فيستخدم في تمثيلها النقاط 000 وتلون بـاللون الأحمـر مثـل الطـرق بـين الأقـاليم وطـرق البريـد ، امـا الصـحاري فكانـت ترسـم بشـكل مسـتطيل او مسـتدير، فـي حـين ان الصـحراء يحـدد فـي الخريطـة فـي الوقـت الحاضـر ضـمن حدودها ترسم مثل الصحراء الكبرى ويلون باللون الأصفر الشبيه بالرمال او الأحمر البني ، اما البحيرات فكانت ايضا لا ترسم بالنسبة لشكلها وإنما فقط إشارة اليها بشكل دائري وتلون باللون الأخضر كما في البحار ، وهذه هي ابرز معالم الخريطة الإسلامية إلا ان دقة الخريطة كان يظل مرتبطاً بمدى معرفة ذلك الرسام بطبيعة المنطقة التي يرسمها .

وقد كان لعلماء العرب الذين عملوا في مجال الجغرافية وضعوا البيانات الأولى للخريطة الإسلامية وكانت هذه الخرائط عبارة عن مرتسمات وقيمة هذه الرسومات هي انها محاولات لوضع الأسس الأولى لهذا الفن ، ولكل من ابن حوقل والمسعودي والمقدسي خرائط بدائية ولم ترتقي إلى مستوى الخريطة ولكنها كانت مصورات لتثبيت المعلومات ، اما الإدريسي فيعد من الأوائل الذين وضع الأسس العلمية في فن رسم الخرائط .

الإدريسي :

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس عاش بين سنة (493هـ / 1099 م) وسنة (560هـ/ 1164 م) ويلقب بالشريف لانتسابه إلى التدريس الأول مؤسس دولة الادارسة في المغرب العربي والذي ينتهي نسبه إلى الخليفة علي بن ابي الطالب (ﷺ) [1] ، ولد بسبته في المغرب وانتقل إلى الأندلس واستقر في مدينة قرطبة فتلقى العلوم فيها واشتد عوده ونال الشهرة في دراسة الجغرافية وذاع صيته في الأرجاء استدعاه حاكم جزيرة صقلية روجر الثاني ونال الخطوة والمكانة لديه وطلب منه ان يؤلف له كتاباً في الجغرافية وكذلك شرع الإدريسي بتشكيل جماعة من العلماء والرسامين لجمع المعلومات ورسم المرتسمات للأقاليم والأنهار والجبال ، فكان نتيجة هذا النشاط الجغرافي ولادة كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) الذي قضى خمسة عشر عاماً في تأليفه وكان يضم مجموعة من الخرائط للمدن والجبال والأنهار والبحيرات والبحار وثبت المسافات بين المدن والأقاليم ، لذلك كان أول المهتمين بعلمه من المستشرقين الألماني كونراد ميلر واستطاع من إخراج خريطة للعالم من خرائط الإدريسي ثم عاد كل من محمد بهجت الأثري وجواد علي في المجمع العلمي العراقي من إخراج خريطة مترجمة إلى العربية دقيقة وواضحة التي تعد من أدق الخرائط الإسلامية والعالمية في العصور الوسطى[2] .

وكانت المحاولة الأولى للإدريسي هو انه رسم خارطتان لروجر الثاني احدهما على شكل كرة من الفضة والأخرى على لوح مسطح من الفضة ايضا الذي سماه لوح الرسم ، ففقدت الأولى ولم تبقى إلا الثانية وثبت عليها حدود الأقاليم وأسماء البحار والبلدان والجبال والأنهار والخلجان والطرق وكل المعلومات الجغرافية التي وضعها لتسهيل القراءة عليها ومعروفة الأماكن من خلال تتبع هذه الخريطة .

ووضع إلى الخريطة التقسيم اليوناني الأقاليم السبعة وقسم كل إقليم إلى عشرة أقسام لتسهيل دراستها ورسمها وعمل لكل قسم خريطة خاصة بها ولذلك رسم سبعون خريطة لكل إقليم وجمعها ورسمها ورتبها للدقة وللوصف الذي يمكنه من عمل خريطة نموذجية واحدة مستقاة من تلك الخرائط فكانت هذه المعلومات هي عبارة عن خلاصة رحلاته وقراءاته حول أغلبية دول العالم[3] ، وتوفي في مسقط رأسه بسبته سنة (650هـ/1160م) على أرجح الأقوال[4] ، والإدريسي

---

(1) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ج1 ، ص 280 .

(2) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 152-154 .

(3) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 154 ؛ خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 70 .

(4) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ح1 ، ص 280 .

يمثل مدرسة جغرافية خاصة وقال عنها الألماني مولر بالمدرسة العربية النورمانية حيث مثل بلاط لروجر الثاني في صقلية ملتقى الحضارتين ومرتعاً خصباً للحرية الفكرية والعلمية في القرن الثاني عشر الميلادي[1] .

(1) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 14 .

الفصل الرابع
ملامح الفكر الجغرافي العربي الإسلامي

أهم الجغرافيون العرب ومصنفاتهم :

ابن خرداذبة :

هو ابو القاسم عبيد الله بن احمد بن عبد الله بن خرداذبة الخرساني عاش ما بين(205و280هـ) كان والده حاكم طبرستان كانت له مكانة في البلاط العباسي وأهمية كبيرة ، هذه المكانة هيأت له ان يتولى عدة مناصب في الدولة ابرز هذه المناصب وهو منصب صاحب البريد الذي تولاه في إقليم الجبال الذي يشمل المشرق الإسلامي همدان أصفهان حتى قزوين ، وكان يتمتع بأهمية خاصة ليس لتوليه إيصال البريد وانما عليه ان ينقل صورة صادقة عن كل ما يتعلق بالأقاليم التي تعتمد عليها اقتصاد البلد ، بل الجوانب الأمنية والاجتماعية ايضا وتولى مناصب أخرى في بغداد وسامراء وكان مقرباً في بلاط الخليفة العباسي المعتمد على الله ، هذه المكانة والمناصب التي شغلها دفعته لان يؤلف كتابه المسالك والممالك الذي استغرق بتأليفه فترة طويلة استجابة لطلب العباسيين لذلك يعتبر كتابه تقريراً عن جباية الدولة العباسية للأقاليم التي تحت سيطرتها[1] .

أي ان الدولة استندت إلى المعلومات الواردة في الكتاب من أراضي وسكان تلك الأقاليم في تحديد الضرائب لاسيما ان علمنا ان إقليم الجبال كان عني بميزاته وموارده فبناءاً على طلب العباسيين ألف كتابه مستفيداً من المركز الذي شغله ، علما انه كان يمتلك فكر جغرافي، لذلك يعد كتابه من الكتب المبكرة في الجغرافية الوصفية واقتبس منه الجغرافيون اللاحقون وكان له قيمته العلمية[2] .

ابن فضلان :

هو احمد بن عباس بن راشد المعروف ابن فضلان هو الرحالة من القرن الرابع الهجري وكتابه وصل الينا تحت عنوان (رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة) وهي من الرحلات التكليفية فرحل هذا الشخص ضمن مجموعة سنة (309هـ /921 م) بناءاً على طلب الخليفة العباسي المقتدر رحل إلى بلاد الصقالبة وبطلب من ملك

---

(1) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص3

(2) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 3 ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص 13 .

الصقالبة الذي كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه ان يرسل له من يفقه في الدين ويعلمه شرائع الإسلام حدث بعد ان دخل ملك الصقالبة في الدين الإسلامي[1] .

فأرسل المقتدر وفداً بينهم احمد بن فضلان وكان هذا مولى لأحد العباسيين ثم اعتق وكان مقرباً في نفس الوقت من الخلافة لجهوده في العلم والمعرفة فكان رسولاً للخليفة العباسي إلى بلاد البلغار ورحل ابن فضلان من بغداد سنة (309هـ/921م) باتجاه المشرق ثم اتجه إلى بخارى فيما وراء النهر ثم إلى خوارزم فيذكر في رحلته بان أمير خوارزم نصح ابن فضلان بأن يرجع إلى بغداد خوفاً من ان يعرض نفسه للهلاك نظراً لمشقة الطريق وكثرة الثلوج[2] .

لكن ابن فضلان الذي أصر على إكمال الرحلة قبل مغادرته خوارزم حاول ان يقدم لنا وصفاً عن تلك المدينة والمهم في رحلة ابن فضلان هي الدراسة الانثروبولوجية التي قدمها عن المناطق التي زارها وهي حصيلة الدراسة الوصفية فأبن فضلان قبل مغادرته خوارزم أعطى وصفاً لبعض عادات وتقاليد هؤلاء الناس (ورأيت دراهم خوارزم مزيفة ، ورصاصا وزيوفا، وصفرا000 وهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً ، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير) [3].

ثم يواصل رحلته إلى مدينة الجرجانية وهي قصبة تابعة لإقليم خوارزم فيقول عنها (فأقمنا بالجرجانية أياماً ، وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره. وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق) ثم يتحدث عن شدة البرق التي لقاها في تلك المنطقة ثم يواصل رحلته من منطقة إلى أخرى واصفاً عاداتهم وتقاليدهم متوجهاً بعد ذلك إلى ملك الصقالبة فيقول (فلما كنا من ملك الصقالبة 000 وجه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده ، فاستقبلونا) (فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه) [4] .

وبعد قراءة الكتاب المرسل معهم من قبل الخليفة بحضور جمع غفير من حاشية ملك الصقالبة ، ثم يصف بعد ذلك ابن فضلان الدعوة التي أعدت لهذا الوفد من قبل ملك الصقالبة و دعاهم إلى بيته وكان جالساً على سرير مغطى بالديباج وعن يمينه وشماله الوزراء والكتاب وأمرهم ان يجلسوا عن يمينه ويساره فدعى بالمائدة فجيء باللحم ولا احد يمد يده وانما هو يمد اليهم بقطع اللحم وجلب لكل شخص مائدة خاصة به وبعد ان انتهوا قدم لهم شراب العسل وانصرفوا .

---

(1) ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 68 .

(2) ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 73 .

(3) نفسه ، ص 82 .

(4) نفسه ، ص 83-85 .

وابن فضلان كواحد من رحالة القرن الرابع الهجري ، وهدفنا من دراسة رحلته الجغرافية هو بيان الفكر الجغرافي العربي الذي كان قائماً آنذاك والذي انصب بالدرجة الأساس على موضوع وصف المجتمع (الدراسة الانثروبولوجية) ودراسة الشعوب بمختلف أجناسها وعاداتها وتقاليدها ونظمها، وعملية الوصف هي أساس المنهج الذي كان قائماً في القرن الرابع الهجري والذي تفرع عنه بقية أنواع الجغرافية المتعددة من الجغرافية الطبيعية والبشرية[1] .

فإذن الحكمة من دراسة هذه الرحلات هي بيان الفكر الجغرافي العربي ومميزاته والذي أطلق عليه المهتمون بدراسة الجغرافية ،الأدب الجغرافي العربي ، وابن فضلان قدم لنا معلومات كثيرة عن رحلته فتحدث عن الروس وعاداتهم وإمكاناتهم الاقتصادية و إمكانية التاجر الروسي وظهرت من خلال الأطواق التي صنعها لزوجته، وكيفية التعامل مع السراق في تلك البلاد ،ويضيف ايضا العادات والتقاليد التي كانت عند ملوكهم والأبهة التي كان عليه ملوكهم والتي تبقى حتى وفاته .

وكذلك ذكر أخبار غريبة عن عادات دفن الملوك عند الخزر في حال وفاة ملكهم يبنى له عشرون بينا ، ويحفر في كل بيت قبرا وتحطم البيوت حتى تصبح رمادا على نهر كبير والذي يستخدمه الروس في تجارتهم ، وانه يدفن في احد البيوت، ولا يعلم احد في أي واحد دفن ، ثم يضرب أعناق الذين قاموا بالدفن حتى يبقى مكان الدفن سرياً، وفي اعتقادهم حتى لا يصل اليه أي إنسان او حيوان او شيطان[2] .

لذلك تكمن أهمية رحلته في جملة أمور :

أولاً : يمكن ان نستنتجها انه قدم لنا صورة صادقة عن العلاقة التي كانت قائمة بين العرب المسلمين والأمم التي دخلت الإسلام حديثاً بحيث انهم أرسلوا إلى الخليفة العباسي ليرسل لهم من يفقهم في الدين .

ثانياً : انها احتوت على مادة وصفية تحليلية للجوانب الاجتماعية والسياسية وهي تمس عدد من القبائل البدوية والتركية في أسيا الوسطى وكذلك البلغار والخزر والروس[3] .

ثالثاً : ان لها قيمة أدبية من حيث ان تلك الرحلة جاءت بأسلوب قصصي ولغة حية .

لذلك ما وصل إلينا من كتابات جغرافية أطلق عليه بالأدب الجغرافي لان هؤلاء الذين كتبوا رحلاتهم كتبوه بأسلوب أدبي شيق ولغة حية لذلك سمي بتاريخ الأدب الجغرافي الإسلامي كما وصفه كراتشوفسكي ، واصبحت مصدراً لمن جاء بعده من الجغرافيين مثل المسعودي

---

(1) ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 113-114 .

(2) المصدر نفسه ، ص 149-166 .

(3) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 195-199 .

والاصطخري لانها كانت غنية بالمصادر والانثروبولوجية (علم الأجتماع) وما يتعلق بالقبائل وعاداتها وتقاليدها لذلك يعتبر رحلة ابن فضلان من الرحالة الذين قدموا لنا دراسة وصفية فيما يتعلق بالجغرافية الطبيعية والبشرية عن تلك البلدان .

المسعودي :

وهو علي بن الحسين بن علي المسعودي ويتصل نسبه الى الصحابي عبد الله بن سعود ولد في بغداد حوالي سنة (287هـ/ 900م) وتوفي بالقاهرة سنة (346هـ/ 957م) ، ونهل العلم من مركز العلوم وشيوخه في بغداد .

والمسعودي هو مؤرخ وجغرافي قضى اغلب حياته في الرحلة أكثر من (25) عاماً وهو رحل بين المشرق والمغرب استناداً إلى تلك الرحلات صنف كتبه التي تجاوزت (30) مؤلفاً والذي كان مصير معظمها الضياع ما عدا مروج الذهب والتنبيه والإشراف وأخبار الزمان الذي دون فيهما كثير من المعلومات الجغرافية .

والمصادر التي استقى المسعودي منها معلوماته هما مصدرين أساسيين :

الأول : هو مشاهداته ومعايناته أثناء رحلاته الطويلة أي بمعنى انه وقف بشكل مباشر على المواضيع الجغرافية الذي دونها في كتابه .

الثاني : هو المصادر التي يمكن تقسيمها إلى قسمين ايضا :

أ – هو المقابلات الشفهية أي الأشخاص الذين التقى بهم من البلدان التي زارها وكان يستفسر عن كثير من الأحداث والأفق الجغرافية فيجاب على أسئلته وكما شاهده ولاحظه وما يدور في ذهنه وهذا ما نجده في كتبه .

ب– المصادر المكتوبة أي الكتب التي قرأها بما تحويه من معلومات جغرافية وكتب الذين سبقوه من اليونان والكتّاب العرب ،فكانت كثيرة يمكن ان نذكر بعضاً منها ، فمثلاً اعتمد على جالينوس في ذكر سكان الأرض وعاداتهم وطبائعهم ، إلا انه لم يذكر لنا اسم الكتاب الذي استقى منه معلوماته ، كما اعتمد على أرسطو طاليس فيما يتعلق ايضا بالناس وعاداتهم لكنه يذكر لنا اسم الكتاب الذي استقى منه معلومات، واعتمد على الكندي في الحديث عن الجغرافية الطبيعية في رسالته المسماة " في البحار والمد والجزر " اشتق منها هذه المعلومات[1] .

---

(1) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، 1973 ، ص 3 .

واعتمد أيضاً في حديثه عن الأرض وشكلها وعن المدن المسكونة على كتاب الجغرافية والجسطي لبطليموس ومن أرسطو طاليس ايضا اخذ ما يتعلق بالجغرافية الطبية من كتابه المسماة في الاثار العلوية (الفلك) وكذلك من كتاب (علم الأرصاد الجوية) فيما يتعلق بالشمس والقمر لكنه لم يشر إلى اسم الكتاب الذي يعود إلى ثابت بن قرة الحراني وهناك كُتب كثيرة اخذ منها في إيراد معلوماته الجغرافية[1] .

ويلاحظ على منهجه انه يتبع المنهج العلمي الصريح وان لم يشر إلى المصدر فانه يشر إلى تلك المعلومات فانه شاهدها بنفسه لاسيما ركوبه عدد من البحار كبحر الصين والروم الخزر والقلزم وقداصابه الهلع فيما أصابه من الأهوال مالا يحصى واصفا ما فيها من مد وجزر وحيوانات وغرائب بحرية[2] .

اما ما يتعلق بمنهجه في الجغرافية وتدوينه يقول عنه كراتشكوفسكي في أدب الجغرافي العربي يقول انه من أكثر الجغرافيين أصالة في ق4–10م لماذا ؟ بسبب منهجيته والأمانة في نقل المعلومات عن الذين سبقوه وقد ركز منهجيته على المشاهدة والمعاينة في توثيق أخباره إضافة إلى المصادر التي ذكرها التي استقى منها تلك المعلومات[3] .

والثاني انه دون كل ما شاهده وسمعه حتى الأمور التي لا تتفق مع العقل والمنطق لأنها كانت شائعة آنذاك ، والشيء المهم في منهجه انه يؤكد على المعلومات التي جمعها لا تأتي إلا بكثرة الرحلات والتجوال فهو يميز ويفرق بين الذي يجلس في مكانه وتأتي اليه المعلومات قد تكون محرّفة او مبالغة فيها، وبين من يرحل للوقوف على تلك المعلومات والتأكيد بنفسه عن ما جاء من خلال رحلته ، وليس من لزم وطنه وبيته واقتنع بما سمعه وجاء اليه من الأخبار عن ممن قضى عمره على تحمل الأخطار وتقاذف الأسفار لاستخراج كل معلومة وتدوينها في مصنفات مكتوبة بأسلوب أدبي رفيع ، وهذا المنهج هو نفس المنهج الذي اتبعه العلماء الحديث من حيث الرحلة في طلب الحديث (علم الجرح والتعديل) عن طريق التأكد من الروايات والأحاديث بعد دراستها بدقة من حيث السند والرواة ،وهو ما يعرف ايضا بعلم الرجال ، والذي اتبعه المسعودي وكذلك يلاحظ على منهجه انه استخدم نفس المنهج الكلاسيكي الذي ساد في القرن 4 هـ من حيث الوصف وهذا المنهج هو أساس الجغرافية العربية والذي انبثق عنه بقية فروع الجغرافية .

---

(1) المسعودي ، أخبار الزمان ، تحقيق عبد الحميد احمد حنفي ، مطبعة عبد الحميد ، القاهرة ، 1938 ، ص 8 و 9 .

(2) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 152–157 .

(3) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص 177–181 .

اما عن رحلاته ومشاهداته فهي عديدة وقد استمرت رحلته أعواماً طويلة زار فيها مناطق واسعة من المشرق والمغرب ودون ملاحظاته عن المناطق التي زارها ووصف رحلاته بالأشعار المتواترة والحركة المتصلة تارة مشرقين وتارة مغربين وطور متمنين وطور متشائمين مما يشير إلى الحركة الدائبة في حياته العلمية رغم اننا لا نستطيع ان نحصى رحلاته ولكن أبرزها ،

زيارته الى مدينة اصطخر (303هـ/915م) وزار بيوت النار ومعابدهم وشاهد طقوسهم الدينية[1] .

و يدخل المسعودي ضمن الرحالة والجغرافيين العرب وذلك لان المسعودي بالإضافة إلى كونه جغرافياً قدم معلومات مهمة أخرى حيث انه كان من الرحالة ومن أولئك الذين قدموا معلومات للمناطق التي زارها ، وجمع وطلب العلم وما دام هناك انفتاح بين الأقاليم الإسلامية عموماً و عدم وجود حدود تعرقل الرحلات مع توفر هذه الممهدات فجميع الرحالة الجغرافيون تنطبق عليهم هذه الظروف ووصفت الرحلات اما كانت طوعية ومنها ما تكون تكليفية .

وكثرت الرحلات العلمية و الرحلات الجغرافية و الحج وطلب العلم وتولي المناصب مثل القضاء وعلى قدر ما كان هناك تمزق سياسي في القرن الرابع الهجري نتيجة السيطرة الأجنبية وانفصال بعض الأقاليم عن الخلافة ، إلا انه كان هناك وحدة فكرية لأنه ليس هناك علاقة بين الفكر والسياسة آنذاك وأي مكان يريد ان ينتقل اليه[2] .

اما في القرن الخامس فقد كان دور الرحالة واضحا سيما الذين قدموا لنا معلومات كثيرة لكنها لم ترقى إلى ما كانت عليها في القرن الرابع الهجري من ازدهار ، لان القرن الخامس كان اقل ارتباطاً بين الأقاليم العربية الإسلامية ، بسبب ظهور البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على مقاليد الحكم في بغداد حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ورغم انهم شجعوا العلم والعلماء وبناء المدارس إلا انه لم يصل إلى ما وصل اليه القرن الرابع الهجري وكذلك بسبب ما حصل من انفصال في هيكل الدولة الى الدويلات ، ورغم عدم وجود حواجز وعدم ارتباطه بالاتجاه الفكري إلا انه لم يرق إلى القرن الرابع الهجري حيث ان وحدة الأمة الإسلامية والخلافة كانت أكثر تلاحما وظهرت فيها رحلات كثيرة ولأهداف مختلفة و حاجة الدولة لتلك الدراسات لغرض معرفة الخراج والضرائب المالية بينما لم تكن هناك حاجة إلى تلك المعلومات في القرن الخامس الهجري مؤديا الى انخفاض واضح في مستوى تلك الرحلات[3] .

عبد اللطيف البغدادي :

وابرز ما يلفت الأنظار في القرن السادس الهجري هو الرحالة عبد اللطيف البغدادي وهو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ولد ببغداد سنة (557هـ/1161م) وتوفي فيها عن عمر يناهز (72 سنة) صاحب كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث

(1) المسعودي ، أخبار الزمان ، ، ص 77 .
(2) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 114 .
(3) الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 143 – 148 .

المعاينة بأرض مصر) المعروف باسم الاقتصار(والإفادة والاعتبار) والبغدادي هو من ابرز أعلام القرن 6 الهجري فضلاً عن كونه نحوي ، رحل البغدادي إلى مناطق عديدة فرحل إلى حلب ثم دمشق والقدس وحران والحجاز ثم حط الرحال في مصر وكتب عن مشاهداته هناك في مصر من حوادث المعاينة لاسيما أحداث المجاعة بين الأعوام وما رافق تلك الأحداث من أمور أثارت الكاتب فدونها .

لذلك تركزت رحلته على مصر بالدرجة الأساس ويبدو انه ركز اهتماماته على مصر دون غيرها من الأقاليم ويعود إلى طول فترة إقامته في مصر في حين المناطق الأخرى مثل دمشق وحلب والقدس وحران أقام فيها فترة قصيرة ، فانصب اهتمامه على مصر وما حصل فيها من أحداث اقتصادية كبيرة وما رافق هذه الأحداث من أمور أثارت مشاعر المسلمين خاصة التي تركز على غرائب الناس من آكلي لحوم البشر والحيوانات الميتة ، كلها أمور أثرت في هذا الرحالة ، لذلك جاءت كتاباته منصباً على نقل الأحداث التي شاهدها في مصر، وبين هذا وذاك يلاحظ ان عبد اللطيف البغدادي ذكر معلومات عامة عن مصر مبيناً فيها طبيعة مناخها وزراعتها وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم ، ثم ينتقل لكي يتحدث في الأوبئة والأمراض التي رافقت المجاعة في البلاد وعن كيفية اختطاف الأطفال واكل لحوم البشر نتيجة ذلك الفقر والمجاعة الذي أصاب الناس مما دفعهم إلى التوجه إلى هذه الأفعال[1] .

ثم يعطي البغدادي أمثلة وشواهد عنها وكيف ان الدولة المتمثلة بصاحب الشرطة كان يلاحق من يقوم بها و ان من يخطف الأطفال ويبيع لحومهم كان يحرق حياً ، وكتاب الاعتبار يعد وثيقة صادقة ومهمة لحياة شعب بكامله كما وصفه كراتشوفسكي بأنه كتاب مهم ليس من وجهة النظر الجغرافية فقط وانما من جميع النواحي العلمية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وينصب في دقة الملاحظة الذي دونه عن مصر لذلك سماه الأمور المشاهدة في الحوادث والمعاينة[2] .

السائح الهروي :

السائح الهروي نسبة إلى هراة والهروي هو علي بن ابي بكر ابن الحسن الهروي المتوفى بمدينة حلب سنة (سنة611هـ/ 1214م) أي انه عاش في نهاية القرن السادس الهجري ونهاية العقد الأول من القرن السابع الهجري ولأنه أعطى شيئاً عن هذا القرنين في مدوناته ودرس علم الحديث والأدب في الموصل وهذه الدراسة أثرت على كتاباته ومؤلفاته من حيث منهجيته وأسلوبه

(1) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 181 .

(2) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 181-186 .

واهتماماته بكل صغيرة وكبيرة ، ويلاحظ من خلال كتاباته انه اطلع على التوراة وكان يورد منها نصوص في مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة ويأتي في مقدمة هذه المؤلفات :

أولاً : كتابه المسماة بالخطب الهروية وهو كتاب يحتوي على شروط ومواصفات التي يجب ان يتوفر في الخطيب سواء كان سياسياً او دينياً او أدبياً انه يجب ان يتوفر فيه صفات محددة مثل الصوت الجهوري والبلاغة وخلفية أدبية وتاريخية فصيحاً خالي لغته من اللحن . ومن كتبه المهمة الأخرى التي وصلت الينا كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات .

وهذا الكتاب بالإضافة إلى الكتاب الأول الخطب الهروية ألفه بناء على طلب الخليفة العباسي الناصر لدين الله المتوفى سنة (622هـ / 1225م) والملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي الذي انشأ له مدرسة في حلب لتدريس الفقه الشافعي وعلوم الحديث وما يهم في هذا الكتاب وصف فيه جوانب كثير من رحلاته إلى الأقاليم المختلفة لذلك جاءت مؤلفاته توثيقاً لهذه الرحلات الذي قضى شطراً من حياته فيها وجاء موثقاً لما شاهده من عجائب الأبنية والعمائر والأصنام والآثار ووثقها في كتابه وقد حققته المستشرقة الفرنسية جانييس سوريل[1] .

وله كتاب آخر اسماه منازل الأرض ذات الطول والعرض وضع فيه مواقع الأقاليم التي رآها ووضع ابرز ما فيها وما لاحظه من مؤشرات ذاكراً علمائها وأدبائها الذين التقوا بهم وما في تلك المدن من آثار كالآثار الفرعونية في مصر وله كتاب آخر اسماه الآثار والعجائب والأصنام ذكر فيه الآثار الذي اطلع عليه الصور والكتابات والنقوش على الجدران خاصة الفرعونية منها فضلا عن البيمارستانات (المستشفيات) والكنائس إلا انه لم يصل الينا سوى أخبار عنه في مؤلفاته السابقة .

ومن خلال هذه الكتب مجتمعة نلاحظ ان السائح الهروي قد قضى شطراً في حياته في رحلاته المتعددة ويلاحظ كذلك انه وضع منهجاً خاصا به ورحلات الهروي المختلفة والكثيرة إلى الأماكن والبلدان ولقاءاته الكثيرة أثرت في منهجه فجاءت مؤلفاته مزيجاً من الدراسات التاريخية والجغرافية والأدبية وكتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات هو كتاب في الآثار فضلاً عن أمور تاريخية قديمة وجغرافية ، وما يتعلق بالدراسات الأثرية وما دونه من الآثار وجاءت كتاباته مزيجاً عن تلك الدراسات فضلاً عما تمتع به من قوة اللغة والأدب وهو ما يظهر في الخطب الهروية[2] .

فهي انعكاس لمنهجه الوصفي الذي سار عليه المؤرخون منذ القرن الثالث الهجري وهو عملية وصف لما زاره من أماكن وشاهده ، مثل وصفه لقبه الصخرة والمسجد الأقصى بشكل

---

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 169 .

(2) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 164 .

دقيق ، كذلك وصفه للأهرامات واعتبرها احد عجائب الدنيا ذاكراً ارتفاعها وما تحتويه ، وتميز منهجه بان له القدرة على عرض أفكاره وكتاباته بلغة سليمة خالية من التكلف وأسلوب واضح ، فضلا عن كونه يتأكد بنفسه من ما شاهده قبل ان يدونه في كتابه ، فمثلاً عندما يتحدث عن البيت الأخضر يقول عنهم لقد ذرعت طول هذا البيت طولاً وعرضاً ، ويبدو انه كان يتحدث عن احد الأهرامات ، وكذلك تحدث عن مكة والمدينة وما فيها من مرافق متعددة فيتحدث عنها بدقة وعناية شديدة .

ويتميز منهج السائح الهروي ايضا في انه حاول ان يربط في كتاباته بين ما يذكره من أخبار وما رآه من أماكن وشواهد ومن حادثة حصلت في تلك المنطقة ، ومن اجل زيادة التوثيق وليعطي صورة صادقة عما كتبه، فمثلاً عندما يتكلم عن جبل المقطم في مصر فيروي بأنه جزء من طور سيناء الذي كلم الله تعالى موسى ، أي ان هذا الجبل متصل بطور سيناء .

وميزة أخرى انه حاول ان يربط ما يكتب عنه من عمارة وآثار وآيات قرآنية وهذا يتكرر كثيراً في كتاباته والهدف من ذلك هو زيادة التوثيق من جهة ومن جهة لتذكير القارئ بان تلك الأماكن ورد ذكرها في القران الكريم ، فمثلاً عندما يتحدث عن مدينة بيت لحم وعمارتها وآثارها وتاريخها ويذكر ان في كنيستها موضع النخلة المذكورة في القران الكريم ، وكذلك يتميز منهجه بأنه تحليلي حيث ذكر الأساطير الخيالية والسحر وهي من الأمور التي سمعها او قرأ عنها أثناء رحلاته .

وهو في ذلك يشبه نفس المنهج الذي سار عليه المسعودي والغاية منها كما يبدو ليرى كل صغيرة وكبيرة كانت متداولة آنذاك ، وهو منهج لم يتفرد به السائح الهروي فقط ، اما رحلته التي استغرقت سنوات طويلة من الزمن من النصف الثاني من القرن السادس بدء بالسنة (569هـ / 1173م) واستمرت حتى نهاية القرن ، فقد شملت اغلب بقاع الأرض شرقيها وغربيها لذلك ورد أخبارها في كتب من جاء بعده من كتاّب أشادوا بتلك الرحلات وأهميتها فمثلاً يقول عن ابن الشعار الموصلي في كتابه عقود الجمان في شعراء ذلك الزمان يقول عنه بأنه ملك القفار وطاف الديار وركب البحار وشاهد الآثار .

كل واحدة منها تعني شيء كثير بالنسبة للسائح الهروي فمثلاً ابن خلكان[1] قال عنه طاف البلاد وأكثر من الزيارات وكاد ان يطبق الأرض دوراناً فانه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبالاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورآها وزارها فاذاً هذه إشارة إلى ان السائح الهروي رحل إلى أماكن واسعة . وهذه الرحلة ابتدأها من العراق سنة (569هـ /1173م) متجهاً إلى بلاد

(1) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ج3 ، ص 346 .

الشام زار حلب ودمشق وحمص ومدن فلسطين ثم خرج من هناك إلى مصر في سنة (570هـ /1174م) ومنها إلى المغرب بعد ان زار إفريقيا ثم ركب البحر من المغرب متوجهاً نحو صقلية ثم القسطنطينية وعاد منها إلى بلاد الشام ثانية ومنها اتجه إلى العراق ثم إلى مكة ومن مكة اتجه جنوباً إلى اليمن ومنها ركب البحر نحو فارس ثم منها عاد إلى حلب وحط الرحال هناك لكي يبقى فيها حتى يتوفى هناك وأثناء ذلك تمكن من تأليف كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات دَون فيه سير رحلته الذي بدءها من العراق وانتهى في حلب شمل المشرق والمغرب انعكس في كتابه الإشارات والخطب الهروية .

لذلك يلاحظ ان هذا الرحالة قد وضع فيها كل ما شاهده من آثار وعمائر ومن عادات وتقاليد لأناس دونها في هذا الكتاب واستخدم المنهج الوطني لكل مدينة زارها ووصفها بدقة ويظهر واضحاً لوصفه معالم بيت المقدس ومكة والحجر الأسود وأضرحة الصحابة واليمن وسد مأرب وهذه الرحلة التي استغرقت ثلاثة عقود دونها في كتابه ولها قيمة بانها تختلف عما سبقوه ويمثل رحلاته الجغرافية بقيمته العلمية والجغرافية والاثارية بحيث يمكن ان تشخص قيمة رحلاته وفق ما يلي :

1- انه ترك لنا في كتاب الإشارات مؤلفاً يعتبر معجماً جغرافياً ذكر فيه أسماء الأماكن والمدن والبلاد التي زارها وذكر ايضا قراها وجبالها وأنهارها وهو أشبه بمنجم ياقوت الحموي .

2- يتميز قيمة رحلاته ايضا بانه وثق كثير من الآثار وخاصة ان السائح الهروي استخدم أسلوباً في تدوين رحلاته وذلك بأنه كان يكتب مذكراته وآثاره على الجدران في المناطق التي رحل اليها كان يكون بين شعر او حديث 000 الخ ولا شك ان هذه الطريقة لم نسمع بها عند الرحالة الذين سبقوه و كما كان كتاباته ايضا وسيلة لتوثيق رحلاته وجاء تدوين ملاحظاته هذه لإثبات انه زار تلك المناطق لإبعاد أي شك عن عدم قيامه بهذه الرحلة ، كما حدث عندما شك البعض في رحلة ابن بطوطة بأنه لم يقوم بتلك الرحلة وانما نقلها عن ابن جبير .

3- كما انه تناول في كتابه مواضيع في الجغرافية الطبيعية لحديثه عن نهر النيل في مصر واعتبره من عجائب الدنيا السبع وحديثه عن المحيط الهندي وما فيها من أحوال وظاهرة المد والجزر وتضمنت رحلاته معلومات عن الجغرافية البشرية والاقتصادية من خلال ذكره للسكان وعاداتهم وتقاليدهم والجغرافية الاقتصادية ذاكراً اقتصاد تلك البلاد وما فيها .

4- وقيمة رحلاته تضمنت وصفاً للطرق والمسالك التي سلكها أثناء رحلاته متبعاً تلك المسالك بنفسه وواصفاً تلك الطرق مثلاً انه حاول ان يصف طول ونوعية الطريق الذي يربط بين صعيد وبلاد النوبة يقول انه يربط هذين المنطقتين بسياج أقامه الفراعنة لغرض ما طوله مسيرة شهر وهو ليس بغريب على الفراعنة الذين أقاموا الأهرامات ايضا وقيمة رحلاته

تتحدد من خلال ذكره للمخطاطات التي تتعلق بالمدن أبرزها وصفه لقبة الصخرة ومدينة القدس والمكة المكرمة والكعبة الشريفة وموضع الحجر الأسود وقبور الصحابة وهذا ينطبق على بقية المدن .

5- قيمة رحلاته انه تمثل هي الأخرى مادة اعتمد عليها الذين جاءوا من بعده من الجغرافيين وهذا ما نشاهده عند القزويني في آثار البلاد الذي ضمه بمعلومات مأخوذة عن الهروي[1] .

الفكر الجغرافي عند المغاربة :

العرب المسلمون في المغرب العربي شانهم شان بقية المسلمين شدهّم حب الرحلة إلى الحج ومن ثم الرحلات والأسفار والولع بالتنقل مهدت هذه العوامل إلى ظهور طبقة من العلماء يهتمون بدراسة هذه الرحلات وتدوينها[2] ، إلا ان الاهتمام ربما تأخر بعض الشيء عن إخوانهم في المشرق ، لذلك نجد النشاط في الرحلات وتدوينها ظهر جلياً في عصر الخلافة ولعل في مقدمة هؤلاء محمد بن يوسف الوراق ويلقب بالتاريخي (ت362هـ/973م) الذي صنف كتاباً ضخماً في (مسالك افريقية وممالكها) وهو من وادي الحجارة ونشأ بالقيروان ثم عاد إلى قرطبة[3] .

ومن بين أوائل الجغرافيين في الأندلس عبد الله بن عبد العزيز بن البكري (ت487هـ/1094م) ومن بين مؤلفاته الجغرافية (المسالك والممالك) ولم تصلنا إلا جزء منه حول المغرب ، والحميري المتوفى سنة (866هـ/1461م) صاحب (الروض المعطار في خبر الأقطار) وكذلك ابو حامد الغزالي المتوفى (564هـ/1169م) اشتهر بكثرة رحلاته إلى مختلف بقاع العالم الإسلامي وغير الإسلامي وألف كتاباً سماه (المعرب عن عجائب المغرب) وكتاب آخر (تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب) ، وكذلك الإدريسي وهو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي درس في قرطبة وله رحلات عددية ومؤلفات عددية وأبرزها (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) و (كتاب الممالك) ولقب الإدريسي بـ (اسطرابون العرب) [4] .

---

(1) زيادة ، الجغرافية والرحلات ، ص 163-166 .

(2) ليفي بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الإسلامية ، ترجمة علي البمبي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2002 ، ص 407 .

(3) انخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2008 ، ص 353 .

(4) نفسه ، ص 359 ؛ الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 137 .

وكذلك ابن جبير وهو محمد بن احمد بن جبير وله رحلات عديدة دونها في كتابه (رحلة ابن جبير) وهناك جغرافيون آخرون كان لهم بصمات في تدوين المعلومات الجغرافية في الأندلس وساهموا في اغناء الفكر الجغرافي العربي[1] .

المآخذ والانتقادات التي وجهت الى الجغرافيين العرب :

1_ خضوع علماء الجغرافية عند العرب الى النظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من ان للعرب تجارب عظيمة وكبيرة .

2_ اعتقدوا باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة والقارسة البرودة مما يدل على عدم إلمامهم بالدول التي تقع في أقصى الشمال او أقصى الجنوب .

3_ اعتقادهم بوجود سلسلة جبلية تضم الأرض من الغرب الى الشرق بالرغم من ان مشاهدتهم كانت تتعارض مع هذه النظرية .

4_ تأثيرهم بالأفكار النصرانية حول منابع الأنهار على انها تنبع من الفردوس فضلاً عن معرفتهم ببعض الأنهار من منبعها الى مصبها .

5_ تأثرهم بالتقسيم اليوناني للأرض على انها مقسمة الى سبعة أقاليم مرتبة من الجنوب الى الشمال ابتداءاً من خط الاستواء[2] .

(1) نفسه ، ص 360 ، وينظر خصباك ، الجغرافية والرحلات ، ص 167 .

(2) خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 23–24 .

الفصل الخامس

الملاحة وتطور الفكر الجغرافي

الرحلات البحرية :

ان الموقع الجغرافي لشبه جزيرة العرب حيث سكنوا العرب ، لعب دوراً مهماً في التوسط التجاري بين المشرق والمغرب ، وهذا الموقع الذي توسط بين المحيط الهندي والبحر المتوسط والبحار المحيطة بها ، حيث ساهمت التجارة البحرية في تطوير النقل المائي في انتقال تجارة التوابل والطيب الى بلاد العرب ومن ثم الى الأمم الأخرى ، سالكين الطرق البحرية التقليدية عبر الخليج العربي والبحر الأحمر ، وكانت المشاركة العربية واضحاً براً وبحراً .

وتشير المصادر اليونانية القديمة التي تتحدث عن سواحل البحار والعلاقات التجارية عند اليونان والرومان ، وسواحل شبه جزيرة العرب والبحر الأحمر واصفاً موانئ الجزيرة العربية بالمزدحمة بالسفن والتجار والملاحين وتتداخل تلك بالموانئ بالعلاقات الاجتماعية المختلفة ، وكانت الملاحة مزدهرة بين الموانئ اليونانية والرومانية مع موانئ الهند ومصر، فيما كانت بعض المدن تتأثر بالاضطرابات السياسية التي كانت تعكر صفوة الملاحة والتجارة الدولية[1] .

تمثل علاقة العرب بالبحر منذ عصور موغلة في القدم عن طريق نقل دينهم وحضارتهم وثقافاتهم الإنسانية كل ذلك كان عن طريق البحر ، وكذلك تلقى العرب علوم وثقافات الأمم الأخرى واستوعبوها وصححوها وأضافوا اليها الشيء الكثير وعن طريق البحر أقام الحواتون (أي العرب المختصون في صيد الحيتان) وأقاموا مدينة جدة وكانت النواة الأولى لمدينة جدة الساحلية . فقد أنشأها هؤلاء الحواتون واستقر فيها قضاعة وهو الابن الثاني لمعد بن عدنان احد أجداد الرسول (ﷺ) وسميت جدة نسبة إلى اسم احد أبناءها وكان ذلك قبل الإسلام بخمس قرون وايضاً هجرة العرب الجنوبيون .

نقلوا تجارتهم عبر البحار إلى الهند والى إفريقيا وعرفوا الرياح الموسمية ، هذه المؤشرات تخالف ما يدعيه المستشرقون هو ان العرب هم أبناء الصحراء ولا علاقة لهم بالبحر ، وفي العصر الإسلامي حفز الإسلام العرب لنشر الدين الإسلامي فقامت الفتوحات الإسلامية الكبرى ايضا مما شجع الإسلام على الرحلة والسفر والحج وطلب العلم ولو في الصين وكان ذلك إيذاناً لانطلاق العرب في نشر الإسلام .

وكانت الفتوحات الإسلامية ميداناً للعرب لنشر أساطيلهم البحرية في البحار خاصة البحر المتوسط لذلك كان ميلاد أول أسطول عربي إسلامي في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) باستشارة معاوية بن ابي سفيان والي الشام فكان أول أسطول عربي ظهر في العصر الراشدي واستطاعوا ان يحققوا بواسطته انجازات كبيرة بفتح قبرص (28هـ /648م) ورودس (

---

(1) حسن صالح شهاب ، احمد بن ماجد ، مركز الدراسات والوثائق ،الامارات العربية ، رأس الخيمة ،2001، ص 13 .

32هـ/652م) وذات الصـواري (34هـ/654م) بقيـادة عبـد الله بـن سـعد بـن ابـي السـرح ضـد الأسطول الرومي .

وخلال العصر الأموي استمر هذا النشاط وكان أبرزها فتح الأندلس سنة (92هـ /710م) ومحاصرة القسطنطينية مرات عديدة وفتح جزر جديدة في البحر المتوسط حتى وأصبحوا أسياد البحر المتوسط فضلا إلى نشاطهم التجاري خاصة مع المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي ، وفي العصر العباسي استمر هذا النشاط واثروا على الحركة العلمية بشكل ملحوظ خلال هذا العصر وحمل العلماء والتجار إلى أقاصي المعمورة من اجل الاكتشاف والمتاجرة والعلم ، لذلك أصبحت تلك الرحلات التي وصلت الينا مدونة في كتب الجغرافيين مثل ابن خرداذبة والمقدسي والقزويني واحمد بن ماجد الملاح ، او وصلت عن طريق القصص مثل حكاية السندباد البحري وهو انعكاس لمدى النشاط البحري الذي وصل اليه العرب[1] .

السفر والحج :

ساهمت الملاحة العربية وتطورها في اغناء الرحلات المختلفة ولاسيما الرحلات والسفرات الدينية كحج البيت الحرام في المكة المكرمة وزيارة المدينة المنورة والزيارات الدينية المختلفة التي تعج البلاد الإسلامية بالمراكز والرموز الدينية من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين ، وكان علماء المسلمين الجغرافيين جزء من العالم الإسلامي متأثرين بالرحلات الدينية ، لذلك شرعوا الى تأليف مصنفات خاصة تتناول البلدان والأماكن ذات الأهمية الدينية او الأماكن التي يحج اليها الناس ولم تكن هذه الكتب وصفية وإقليمية فحسب ، بل تخطيطية لتناول الأماكن المقدسة في الإسلام من مقابر الأولياء وتكايا الصوفية والرباطات الى جانب الحلقات الدينية التي تدرس في المساجد المعروفة في المدن الإسلامية والتي تختص بالعلوم الشرعية المختلفة ، حيث عرفت المكة المكرمة بلقاء العلماء في مواسم الحج وعرفت المدينة المنورة بدار حديث وهكذا تميزت بعض المدن الدينية باهتمامات شرعية وعلوم القران والحديث النبوي الشريف ، حتى عرفت تلك الكتب (بكتب الزيارات) وهي كتب بمثابة دلائل للحجاج وأهل الربط والصوفية ولعل من ابرز هذه الكتب السائح الهروي المتوفى (611هـ/1214م) كتابه (الإشارات الى معرفة

(1) السيد عبد العزيز سالم واحمد المحتار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية، بيروت،1969، ص 35-37 .

الزيارات) وكتاب (الدارس لتاريخ المدارس) لعبد القادر محمد النعيمي المتوفى سنة (648هـ/1520م) [1] .

عوامل تطوير البحرية الإسلامية :

ان اهتمام بالبحرية في الدولة الإسلامية كانت واسعة ومهمة في حماية سواحل الدولة مساهمة فعالة في تنشيط حركة التجارة والقيام بالرحلات المتعددة الأغراض والأهداف سواء كانت رحلات علمية او دينية او تجارية وسياحية ومهما كانت الدوافع فقد ساهمت البحرية الإسلامية في تحقيق هذه الأهداف بشكل لائق ، ولم تكن الولايات التي استقالت عن الدولة العباسية اقل قدرة في تفعيل البحرية وللإغراض التي عرضناها سابقاً .

وكانت الدولة الفاطمية الذين أسوا دولتهم في المغرب العربي ثم مصر لم تقل اهتماماً بشؤون البحر واعتمدوا على أساطيل تمكنهم من بسط نفوذهم السياسي في بلاد المغرب ومنافساً قوياً لنفوذ الدولة الأموية بالأندلس في السيادة على البحر المتوسط ودخلوا في صدامات وصراعات في البحر واثبتوا قدرتهم في الملاحة من مختلف النواحي وتعود عوامل تفوقهم الى عوامل عدة منها :

أ- الرغبة في تفعيل فكرة الجهاد وهي الركيزة الأساسية في الفكر الإسلامي ولاسيما بعد ان بدء الضعف يدب في الخلافة العباسية ببغداد وتقاعسهم في الدفاع عن الثغور الإسلامية .

ب- الرغبة في توسعهم السياسي في المشرق العربي ومغربها بعد ان أصبحت الدولة العباسية ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن الخلافة في بغداد .

ج- الاعتماد على دور صناعة السفن المنتشرة على سواحل البحر المتوسط واستخدم من اجل تقوية الأساطيل ودعم حركة التجارة الدولية .

د- كثرة الموانئ والمراسي في المغرب العربي ساهمت بدورها في تنشيط حركة القطع البحرية وتعدد قواعدها في حالة الحرب والتوسيع في التجارة الدولية في المجالات السلمية والاستفادة القصوى من هذه الموانئ للازدهار الاقتصادي[2] .

اما الملاحون العمانيون كانوا سادة البحر الجنوبي في العصر الإسلامي وكان للموقع الجغرافي الدور الهام وأعظم الأثر فيما أحرزوه من شهرة بحرية وقد شادت الكتب الجغرافية من

---

(1) الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 154-155 .

(2) سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية، ص 150-151 .

خلال مؤلفاتهم حول الأنشطة البحرية في عمان والمدن الواقعة على البحر العربي والخليج العربي .

وتتميز عمان بكثرة مدنها على البحر منها صحار التي يصفها المقدسي وصفاً[1] مفصلاً عن دورها التجاري وعماراتها وأسواقها وعلاقاتها التجارية مع الصين والهند وذكر ايضا ان مدن عمان بحرية كانت تبلغ 16 مدينة رغم صغرها من حيث المساحة ، وتوضح بعض المصادر ان أهل اليمن من الأزد بعد انهيار سد مأرب هاجروا الى عمان وسكنوا واستفادوا من خبرتهم في الملاحة من اليمن في تفعيل الأساطيل والتجارة البحرية في عمان وهكذا غلب الازد على عمان وساهموا بخبراتهم البحرية الماضية من أجدادهم السبائيين في العمل في المجال البحري وساهموا ايضا في نقل خبراتهم في الفتوحات الإسلامية في الشام وكذلك يعود الفضل للازد في إنشاء القوة البحرية في الأندلس كجماعات بحرية من دون جهود لدولة الأموية حيث كانوا يعملون في سواحل طرطوشة وبجانة[2] ، وساهمت خبرة أهل عمان في معرفة مواسم الرياح الجنوبية الغربية في فصل الصيف يسرت لهم الفائدة في تحديد مواعيد رحلاتهم الصيفية نحو الهند وأفادوا من الرياح الموسمية الشمالية الشرقية في فصل الشتاء في رحلاتهم والعودة الى بلادهم ، ومع مرور الزمن اكتسبوا خبرة واسعة في صناعة السفن لهذه الرحلات التجارية واستفادوا من خلال تجارتهم مع الهند والصين من اجل استيراد الأخشاب ، الأنواع المتميزة لصناعة السفن وقدرتها على تحمل الصدمات في البحار ومقاومة المياه المالحة في البحار ، وكذلك استخدموا المسامير الليفية وهي عبارة عن حبال ليفية تستخرج من الأشجار وتدهن بدهن الخروع او دهن القرش لتكون لينة وتقاوم الصدمات بالصخور فضلاً ان استخدام المسامير الحديدية في صناعة السفن كانت غير محبذة لديهم بسبب غلاء معدن الحديد إضافة الى ذوبان المسامير في المياه المالحة ولاسيما في البحر الأحمر .

وساهمت عوامل طبيعية في نشوء ونشاط الملاحة في الأندلس حيث تمتلك بلاد الأندلس سواحل طويلة ومراسي طبيعية لحماية القطع البحرية من التيارات البحرية العالية التي تدمر السفن وكذلك امتلاكها الى أخشاب الصنوبر والأرز الخاصة بصناعة السفن وامتازت هذه الأشجار بخصائص منها أطوالها واحتواءها على مادة شحمية او زيتية تحافظ عليها في مياه البحار من الإتلاف وكذلك استفادوا العرب من التراث الأندلسي في خبرتهم في صناعة السفن إضافة وجود معادن مختلفة لصناعة آلات الملاحة الدولية فضلاً عن امتلاكها الى موارد طبيعية من صناعات غذائية ومنسوجات أضافت دافعاً قوياً للانفتاح نحو التجارة الدولية وبذلك كانت

---

(1) أحسن التقاسيم ، ص 94-95 ؛ سالم، بحوث اسلامية ، ق1 ص151

(2) سالم ، تاريخ البحرية ، ص 150 و ص 178 .

الملاحة في الأندلس تجارية بالدرجة الأولى ومن ثم حربية من اجل الدفاع عن منجزاتها وحماية البلاد من المخاطر الخارجية[1] .

آلات الملاحة عند العرب :

الاصطرلاب :

ولابد من الإشارة إلى ابرز الآلات المستخدمة في مجال الرصد الفلكي وهو الاصطرلاب وهو بحد ذاته ذو أصل يوناني يعرف عند اليونان باسم اصطرلابون وهي كلمة يونانية من مقطعين تعني الأول نجم والثاني مسراة (أي عاكس النجوم) ويقال ان مبدأ الاصطرلاب يرجع أصله إلى ان أرسطو طاليس كان لديه كرة معدنية مرسوم عليها الأقاليم المعروفة آنذاك فسقطت من يديه تلك الكرة فرفسها حوافر دابته فانبسطت فأصبحت أساساً للاصطرلاب الذي اعتمد في القياسات والقراءات عند اليونان وهو نفسه الذي طوره العرب[2] .

والاصطرلاب على أنواع منه الدائري منه الزورقي والمثلث وكل نوع مرتبط بطريقة الصنع الذي ابتدعه ذلك الصانع بشكل بدائي وبسيط ، يتكون من دائرة وهذه الدائرة مقسمة إلى درجات هي (360) ومرسوم على جهة القرص المعدني (الاصطرلاب) الأبراج الاثنا عشر وعلى هذا القرص مؤشر وفي أعلى القرص ثقبين فاذا أريد قياس ارتفاع أشعة الشمس تمرر أشعة الشمس من احد هذين الثقبين بطريقة مهمة لهذا الغرض وبمثل هذه الطريقة يتم مقياس ارتفاع القطب وبنفس الطريقة يقاس مستوى الكواكب السيارة ، ووصف العرب هذه الآلة بالآلة الشريفة مما يدل على أهميتها في حل المسائل الفلكية[3] .

والاسطرلاب اليوناني هو بسيط لا يتعدى هذا القرص المسطح المثبت عليه الأبراج ألاثني عشر لغرض تحديد موقعها من السماء ، اما العرب فقد اخذوا هذه الآلة وطوروها بحيث استطاعوا من خلالها القيام بعمليات فلكية ورياضية حلت رموزها دون اللجوء إلى الورقة والقلم عن طريق استخدام الزيج (الجداول الفلكية) لمعرفة الأبعاد هذه الآلة طورت في العصر الإسلامي وأخذت تستخدم لقياس الارتفاعات المجهولة مثل ارتفاع النجوم فضلاً عن تحدد أوقات الصلاة ومواعيدها وتحديد سمة القبلة ومعرفة ساعات الليل والنهار والتي تختلف من إقليم لآخر[4] .

---

(1) الحميري ، صفة الجزيرة ، ص 124 ، عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية ، ص 57 .

(2) أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار ، ص 141 .

(3) نفسه ،ص141

(4) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج1 ، ص 100 .

انتقلت هذه الآلة مرة ثانية إلى أوربا بشكلها المتطور عن طريق الأندلس فاستخدمت في الملاحة البحرية وابرز الاصطرلابات التي عرفت في أوربا هي التي صنفها الفزاري (ابو حبيب الفزاري) = 1800 هـ ثم محمد بن احمد الصاغاني ت : 389 هـ [1] .

استخدامات الاصطرلاب عديدة منها (معرفة ارتفاع الشمس والأجرام السماوية والميل والبعد وعرض البلد وسعة المشرق ثم معرفة قوس النهار والليل وساعاتهما وأزماتهما ثم معرفة مطالع البروج بالفلك والمستقيم وبالبلد وتحويلها الى درجات كما يمكن به معرفة السمت (الاتجاه) لكل ارتفاع وعكسه وسمت القبلة وانحرافها وجهتها وانحراف البلدان بعضها عن بعض) [2] .

وكذلك تؤدي خدمات أخرى وعمليات فلكية على جانب كبير من الأهمية إلا انها غير دقيقة مقارنة مع الأجهزة الحديثة إلا انها كانت تؤدي مهام وأغراض في غاية الأهمية في حينها، وهناك أجهزة ملاحة أخرى لدى العرب الى جانب الاصطرلاب منها ربع الدائرة او (المربع) ولقياس بالأصابع وآلة الكمال وآلة البلستي وآلة الاربليت ولكل جهاز استخدامها لدى المهتمين بهذه الأجهزة او الآلات[3] .

وكذلك آلة بيت الإبرة او (الحقة) او البوصلة[*] الذي عرفه ابن ماجد من خلال مؤلفاته وهي آلة استعملها الملاحون العرب في أسفارهم البحرية كما ورد ذكرها في أشعار ابن ماجد .

وجـــــدد الآلـــــة قبـــــل الســـــفر

كحقـــــة أو قيـــــاس أو حجـــــر[4]

والبلـــــد والفـــــانوس والرهمـــــانج

وان تكـــــن ســـــافرت كمـــــن حجـــــج

وهذه الأبيات تشير الى ان على الملاحين تهيئة آلات الملاحة قبل الرحلة والسفر .

---

(1) نفسه ، ج2 ، ص 510 .

(2) أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار ، ص 142 .

(3) نفسه ، ص 142– ص 151 .

(*) البوصلة : جهاز لتحديد اتجاه الشمال وهي كلمة ايطالية تعني الصندوق او الحق وتوضع اتجاه الشمال بخاصية انجذاب الإبرة المغناطيسية نحو الشمال ، ينظر : أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار ، ص 158 .

(4) نفسه ، ص 158 .

البيروني :

والبيروني هو ابو الريحان محمد بن احمد ، ولد في بيرون عاصمة خوارزم ويقال ولد في بيرون السند شمال غربي الهند حوالي سنة (362هـ/963م) وتوفي سنة (440هـ/1048م) ،وارتبط بعلاقات مع علماء العالم الإسلامي وكان له مراسلات مع ابن سينا لتبادل المعلومات والافكار ، خدم في بلاط منصور بن نوح الساماني (387- 389هـ/997-998م) وعاش مدة الزمان في جرجان حتى استيلاء السلطان محمود الغزنوي عليها ، ووقع اسيرا بيده ومن ثم التحق في خدمته وشاركه في بعض غزواته ولاسيما في مناطق الهند وتعلم خلالها مجموعة من اللغات المحلية ومنها الهندية وكث في الهند وطاب له المقام مدة أربعون عاما ولذلك استفاد من هذه الرحلات حيث اطلع على حياة الهنود فكتب كتابه المشهور (تحقيق ما للهند من مقولة ...) والآثار الباقية وألف مجموعة أخرى منها (القانون المسعودي) الذي قدمه الى شهاب الدولة مسعود بن محمود الغزنوي وكتاب (تاريخ الهند) و(كتاب العمل بالاصطرلاب) و(الرسائل المتفرقة في الهيئة) .

وكان البيروني محط إعجاب الباحثيين الغربيين خاصة فقد أطلق عليه (بطليموس العرب) وقال عنه المستشرق الألماني أدور سخاو بأنه أعظم عقلية عرفها التاريخ وكان احد علماء البحث التجريبي عند العرب ، حيث استخدم جهاز للتحديد الكثافة وهو جهاز مخروطي الشكل ويعد اقدم جهاز لقياس الكثافة[1] .

وكان له اهتمام خاص بعمل وصناعة الاصطرلاب وقد افرد مبحث خاص عن عمل الاصطرلاب وكيفية قياس المسافات وارتفاع النجوم والكواكب عمليا ومع مخططات لتوضيح ذلك العمل مع جداول لتوضيح عمل الاصطرلاب ومواقع النجوم عند القيام بالقياس ،وقد استخدم في توضيحه الاصطرلاب المبطح والمخروطي ويشير خلال شرحه لعمل الاصطرلاب الى كتاب له (استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الاصطرلاب) وهو كتاب يشرح جميع أنواعها ومشيرا الى بعض المصادر العربية من علماء الذين اعتمد عليهم في هذه الشروحات وكذلك اعتماده على كتاب المجسطي لبطليموس وكذلك اعتمد على الجداول الفلكية لمحمد بن جابر البتاني وكتاب الكواكب الثابتة لابي الحسين الصوفي ونقل عن ابو حامد الصغاني حول عمل الاصطرلاب [2] .

(1) البيروني ، الاثار الباقية ، ص 3 .

(2) المصدر نفسه ، ص 321-326 .

وفي كلتا الحالتين يعد من ابرز أعلام القرن الخامس الهجري وأعلام الجغرافيين ، وركز البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مزدولة) الذي خصصه للهند وعن شعوب تلك المنطقة وتقاليدها ونظمها وديانتها من مختلف الجوانب الجغرافية سواء كانت

طبيعية واقتصادية وبشرية 000 الخ ، فرحل البيروني إلى كثير من المناطق ودون الكثير من المفاهيم الجغرافية وكانت عملية تدوين المعلومات قيمة وكثيرة عن الهند لأنه بقي ما يقارب من 40 عاماً في بلاد الهند وأصبح له خبرة كافية فيها وتجول في أنحائها وعرف الكثير عن لغاتها المتعددة وشعوبها وأديانها المتعددة والكثيرة[1] .

وقدم البيروني من خلال هذا الكتاب وخاصة عن الهند أشارات إلى حالة الجهل والفقر وشبههم مثل ابو حيان التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة عندما فاضل بين العرب والأمم الأخرى فالبيروني فاضل بين الهنود واليونان وشبه الهنود في فقرهم وجوعهم باليونان إلا ان اليونانيين اختلفوا عنهم ، إلى ان بمرور الزمن برز من اليونان فلاسفة ومفكرين استطاعوا ان يقدموا خدمة للعلم ليس في اليونان فقط وانما في بقية المناطق ، في حين الهند لم يظهر منهم إلا ما ندر، وركز البيروني على عاداتهم وتقاليدهم وطبائعهم ، وأشار إلى انهم كانوا يشربون الخمر على قارعة الطريق ويحرمون أكل لحوم البقر، ويتحدث عن عاداتهم في أيام الأعياد وما يلبسون ووصف ارض الهند وصحاريها وجبالها وأنهارها[2] .

وايضا حاول ان يركز على الأمور التي رآها بنفسه مبتعداً عن كثير من الخرافات التي لا يثق بها ، مثل ابن فضلان، الذي أورد الكثير من الأساطير مع انه كان عالماً ومثقفاً وفلكياً وجغرافياً 0000 الخ .

دور التجارة في الاستكشافات الجغرافية :

ومن الملامح المهمة في التطور الجغرافي لدى العرب المسلمين ، صدور الكتب الجغرافية ، والتي ساهمت بشكل فعال في النشاط التجاري ولاسيما بعد الاهتمام بالكتب البحرية والرحلات التي أثرت فعلاً في معرفتهم بالأمم والأقاليم من خلال وصفها بين طيات كتب الرحلات البحرية ، ولا ينكر جاء بفضل التوسع السياسي وعلاقة المسلمين مع بعضهم أي قوة الرابطة الإسلامية بصرف النظر عن القومية والجنس وانعكست على حياتهم الاقتصادية فضلاً عن عوامل أخرى

---

(1) الدفاع ، رواد علم الجغرافية ، ص 129 ؛ وينظر ، مايكل ، جغرافية دار الإسلام ، ج1 ، ق1 ، ص224 .

(2) أبو الريحان محمد بن احمد البيروني ، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، 1958 ، ص 17 ؛ خصباك ، الجغرافية عند العرب ، ص 85 .

كالحج إلى مكة وغيره من الأماكن الدينية والوفود الرسمية والحملات العسكرية والتجارة وكذلك مهنة الملاحة وتطورها باتجاه المزيد من الاستكشافات للأقاليم والممرات المائية وفنون الإبحار[1] .

ويعود اهتمام العرب بالملاحة منذ القدم حيث كانوا وسطاء بين تجارة المشرق والمغرب فلما اتسعت الدولة الإسلامية وشيدت بغداد لتكون مركز استقطاب علمي وتجاري وظهور الموانئ في البصرة وسيراف التي فعلت الحركة التجارية وبالتالي حركة وتطور الملاحة مباشرة مع الشرق ،الهند والصين، عن طريق الخليج العربي حتى أصبحوا العرب على دراية تامة في الرياح الموسمية وعرفوا سعة البحار وامتداداتها ولذلك قسموا البحار إلى سبعة وسموا كل قسم باسم خاص ، وأبحروا من البحار المجاورة لهم من عدن إلى شرق أفريقيا حتى سفالة جنوباً وبحر الأحمر والبحر المتوسط فضلاً عن الأنهار المعروفة لديهم كدجلة والفرات والنيل ، وكان للمسعودي[2] دور في سجل أسماء بعض الربان السفن الذين اشتهروا بالشجاعة والخبرة في الملاحة وهناك أسماء لامعة في هذا المضمار حيث ذكرت من خلال رحلات وأسفار الجغرافيين العرب عند تسجيلهم لمشاهداتهم عن هؤلاء الرجال الذين وضعوا الخرائط وعلوم البحار رغم فقدان الكثير منها إلا ان الباقي كافي لتقييم دورهم الايجابي[3] .

وكان لنمو الملاحة دور واضح في النشاط التجاري فكان السلطان السياسي للمسلمين سلطان آخر في الاقتصاد والتجارة وأصبحت الصلات التجارية والتبادل التجاري واسعة المديات حتى تصل الصين والهند والى ابعد البقاع العالم المعروفة آنذاك ، وتشير بعض المصادر إلى عدد الضحايا الذين قتلوا من الأجانب خلال ثورة الصين سنة (878م) في عهد هوانغ سُئاد أعداد كبيرة مما يدل على قوة الروابط الاقتصادية والتجارية مع الصين ومنذ ذلك التاريخ بدت ملامح الاضمحلال على النشاط التجاري باتجاه الصين[4] .

لذلك كانت هذه الرحلات جزء من مغامرات البحارة العرب الذين عرفوا بها في طرق أبواب الاتجاهات المختلفة التي كانت محفوفة بالمخاطر ومع ذلك استمروا في الرحلة لتحقيق أهدافهم أمثال سلام الترجمان في رحلته إلى بلاد الترك والروس والعجم في عهد الخليفة الواثق (227-232هـ/842-847م) ، وكذلك قصة الشباب من اشبونة الأندلسي الذي خرج باتجاه المحيط

---

(1) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص 16 ؛ وينظر جمال الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 134 .

(2) أخبار الزمان ، ص 25 .

(3) الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 136 .

(4) نفسه ، ص 137 .

الأطلسي المعروف (بحر الظلمات) ومن ثم العودة بعد مدة وهم يحملون غنائم من مناطق غير معروفة لديهم مما يدل على شجاعتهم وحب المغامرة في الرحلات وزيادة الاستكشافات حول المناطق المجهولة لديهم[1] .

ويمكن القول ان العرب بدءوا يحذرون من المغامرات إلى المناطق والأقاليم المجهولة وذلك للأسباب التالية :

1. اكتفاء تجارتهم وقناعتهم بالمناطق المعروفة لديهم التي كانت تؤدي مهامها التجارية لذلك بعد المغامرات تستهوي المغامرين ولا التجار .
2. الخواطر والأساطير التي كانت تسيطر على أفكارهم حول المناطق المجهولة حيث عرفوا المحيط الأطلسي بـ (بحر الظلمات) بسبب معرفتهم إلى الأمواج العالية والعواصف الشديدة التي تعرضوا لها من خلال إبحارهم فيه لذلك كانوا حذرين من المخاطر[2] .
3. خشيتهم من ملاقاة القبائل المتوحشة لسكان الأصليين من جزر الهند الشرقية لذلك قصروا في رحلاتهم البحرية باتجاه الشرق[3] .

ودونت أخبار الرحلات البحرية في الكتب الجغرافية عند المسلمين وأصبحت مصادر مهمة حول الأمم والشعوب الشرقية مثل الصين والهند ولعل من أوائل الذين دونوا هذه المعلومات سليمان التاجر في رحلته إلى الهند والصين (سنة 235هـ/850م) في كتابه (أخبار الصين والهند) ونقلها ايضا أبو زيد السيرافي (سنة 302هـ/916م) في كتابه (سلسلة التواريخ) ونقل ايضا معلومات قيمة المسعودي في كتابه (مروج الذهب) الذي حاول مناقشة الأخبار عن وجود ألواح من أخشاب بالبحر المتوسط وجدت في بحر العرب لذلك اعتقدوا ان البحر المتوسط يرتبط ويتصل مع البحر العربي عن طريق الجنوب وظلت هذه الألواح غائمة حتى وصلت بحر العرب مما يدل على نشاط الفكر الجغرافي في تحليل بعض الظواهر والوصول إلى نتائج قريبة من الواقع[4] ، وهناك أسماء أخرى لامعة في أخبار الملاحة أمثال احمد بن ماجد ومحمد بن شادان وسهل بن أبان والليث بن كهلان وشهريار الذي صنف كتاباً في الحكايات البحرية بعنوان (كتاب عجائب الهند) سنة (342هـ/953م) ، وذلك عرف مدة حركة النشطة لملاحة العرب بانها مدة تميز بروح البحث والمغامرة والفحص والتمحيص بين النظرية والعملية والتي فقدت نسبة كبيرة منها مع مرور الزمن[5] .

---

(1) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص 16-17 .

(2) الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 139 .

(3) نفسه ، ص 139 .

(4) الفندي ، الجغرافية عند المسلمين ، ص 141 .

(5) نفسه ، ص 136 و 142 .

الإضافات البحرية العربية في الملاحة :

يشهد على هذه الإضافات العديد من المستشرقين والمؤرخين الأجانب ويشهد عليها كذلك المؤلفات البحرية للقدامى يقول كراتشوفسكي في أدب الرحلات الجغرافية كان الاكتشافات البحرية التي حصلت في أواخر القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي تم بفضل العرب واعتبر اكبر اكتشاف في القرن 15 قد تم على يد فاسكوديكاما عندما وصل إلى رأس الرجاء الصالح واجتازها شمالاً نحو سواحل أفريقيا الشرقية عندما أبصر السفن لعربية على الساحل الشرقي من أفريقيا وان احمد بن ماجد الملاح هو الذي دله على الطريق إلى الهند عبر المحيط الهندي .

فهو لذلك اعتراف بان فاسكوديكاما لم يكن ليصل الهند بواسطة السفن العربية واعتبر كراتشفسكي ايضا نجاح البرتغاليين في اكتشافاتهم يعود إلى اعتمادهم على الخرائط البحرية الإسلامية وأدواتهم الملاحية وأكد العالم الأمريكي تومسون ان الريادة والكشف الأوربي في القرنين 15–16 يدينان ديناً لا تقدر إلى إعجاب العرب في رسم الخرائط والعلوم البحرية العربية وان ما طرأ من تحسن على صناعة السفن يعود إلى العرب الذين اقتبسوا هذه المهنة من الإغريق والرومان وحافظوا عليها وطوروها وان السيادة العربية على البحر في القرن 15 وضعت بيد الجغرافيين العرب خبرات ومراجع لا مثيل لها دونها الملاحون العرب أمثال احمد بن ماجد الملاح ، فكان لديهم سجلات الملاحة لربانية السفن او ما يعرف باسم مرشد الملاحة جاء نتيجة خبرة طويلة في البحر ، وايضا المدونات البحرية العربية التي أذهلت فاسكوديكاما بما انجزه الرحالة في مجال البحر في استخدام الخرائط واستخدام الاصطرلاب ومرشدات الطريق أي كتب الإرشاد التي يتبعها الربان أثناء سفر " وقصة إرشاد احمد بن ماجد الملاح لفاسكوديكاما دليل على معرفة العرب البحر واستكشافاتهم البحرية وانجازاتهم في مجال البحر .

واشتهر العرب بصناعتهم السفن الكبيرة التي اشتهر بها أبناء الجزيرة العربية بحكم موقع مدنهم على البحر العربي والأحمر والخليج وبحكم ذلك اشتهروا بان لديهم خبرة في صناعة السفن الكبيرة التي أصبحت مجال مغامراتهم البحرية وابرز الرحالة البحريين هم كثر ومن هم احمد بن ماجد الملاح الذي أطلق عليه الجغرافيون المحدثون بانه رائد المرشدات بكتاب الإرشاد البحري " التي استخدموها الربانية في كيفية التعامل مع البحر وسميت بأدب الإرشاد لان هذه الكتب الذي صفها احمد بن ماجد الملاح هي في حدود الأربعين مؤلفاً كلها قد الفت عن طريق الشعراء " أي ورد شعراً " لان القدماء اعتادوا ان يعلموا من يعلموهم في مختلف الأمور عن طريق الشعر لأنه أسهل حفظاً مثل ألفية ابن مالك في النحو .

فأبن ماجد استخدم ذلك فيما عدا كتاب واحد وأكثرها شهرة فقد ورد نثراً وكانت وسيلة للإرشاد البحري فيما يتعلق بالتيارات المائية والمد والجزر والرياح لذلك فهو يعد أديب وعالم وبحار وقال عنه المستشرق الفرنسي فيران بانه أول مؤلف للمرشدات البحرية أي انه أول شخص قدم معلومات عن البحر ليتبعها ربانية السفن وقال عنه كراتشفسكي بأنه تميز عن سبقه من التجارة بأنه كان قارئ ومطلع في مجال الأدب البحري وان اطلاعه في الأدب الجغرافي ليس اقل من اطلاعه في الأدب الملاحي لذلك اعتبر دليلاً بحريا لفاسكوديكاما نحو الهند عبر المحيط الهندي .

اثر الفكر الجغرافي العربي على أوربا :

احمد بن ماجد :

ولد احمد بن ماجد الملاح عام (836هـ/1432م) وتوفي بعد سنة (904هـ/ 1498م) في الساحل الغربي لخليج عمان في منطقة جلفار هذا الشخص نتاجاته كثيرة بلغت أربعين مؤلفاً اغلب كتبه مدحاً شعراً وأكثرها لازالت مخطوطة في المكتبة الأهلية في باريس ما عدا مؤلفاً واحداً وهو من أكثر كتبه شهرتاً المعروف باسم (كتاب الفوائد في أصول علم البحر القواعد) وهذا الكتاب كتب نثراً وليس شعراً ، استغرق صاحبه في تأليفه ما يقارب خمس عشر عاماً ، وهو يتألف من مقدمة ، واثنى عشر فصلاً كل فصل سماه فوائد لذلك سمى الكتاب باسم الفوائد في أصول علم البحر والقواعد فضلا إلى المقدمة التي ذكر فيها أفاق كثيرة ، أبرزها انه تحدث في المقدمة لمن يهتم بهذا الموضوع بأمور البحر مؤكداً ان العلم ضروري لمعرفة البحر الذي يتطلب منه عمر الإنسان كله للإحاطة به والتمكن منه[1] .

وعلم أصول البحر يتطلب ممن يهمه الأمر من البحارة الإحاطة به وان يقضي عمره في الدراسة وطلب هذا العلم ، لذلك شدد على ضرورة إحاطة رؤساء المراكب وراكبي البحر بعلم البحر ، وان يهدوا للبحر حياتهم ولا يستهينوا به لما فيه من فوائد كبيرة بالنسبة لهم .

والفوائد ألاثني عشر (فصلاً) تناول فيه ابن ماجد أفق كثيرة ، مثلاً في الفصل الأول يعرض تجارب سابقة ويقول عن ذلك ان الناس كانوا في الزمان الأول أكثر جزعاً ولا يركبون البحر إلا بأهله (أي المتخصصون يركبون البحر من شدة الخوف) ونحن أكثر منهم علماً وتجربة (أي أراد القول ان السابقين اعتمدوا في ركوب البحر على المعارف الذي ورثوه عن السابقين بينما في عصره تطور فيه فن الملاحة وأدواته ومؤلفاته البحرية (كتب الإرشاد) اما في الفائدة الثانية أعطى فيه إرشادات وتوضيحات لربانية البحر منها كيفية رصد الكواكب والنجوم

(1) عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار ، ص 175 .

والإرشادات الدالة على اقتراب الساحل أي ما هو الدلائل لظهور الساحل مثل القاع الطيني او وجود الحشائش والأعشاب والطحال وحدوث المد والجزر 000 الخ .

اما في الفائدة الثالثة والرابعة عدد أنواع النجوم والكواكب التي يستنجد بها الربانية في الملاحة ، اما الفائدة الخامسة وحتى الثاني عشر تناول فيها توجيه النصح للربانية عن كيفية قياس ارتفاع النجوم والوسائل التي يتبعونها لتجنب الأخطار المحيطة بهم والتأكد من الأجهزة الملاحية والأجهزة التي يستخدمونها في الملاحة ثم يصف الجزر التي رحل اليها مثل جزيرة قمير (مدغشقر) وسومطرة وكما حدد الأوقات المناسبة للسفر من الأيام والأشهر من حيث الأمواج والرياح والتيارات البحرية .

في حين يذكر في الفائدة الأخيرة (12) وصفاً لبحر القلزم (الأحمر) ومراسيه وشعابه المرجانية ويعتبر كتابه هذا من أهم كتب الإرشاد البحري بعكس بقية مؤلفاته ، اما أهم مؤلفاته المنظومة شعراً كتابه المسماة " حاوية الاختصار في أصول علم البحار " ويقع في ألف بيت شعري ويتكون من إحدى عشر فصلاً يتحدث فيه عن المرشدات البحرية من كتب وأجهزة وخرائط يستعين بها الربان كما يتناول الكتاب علامات الاقتراب من الساحل التي ذكرها في كتابه السابق كما ذكر منازل الأبراج والنجوم وارتفاعاتها ووصف لسواحل أفريقيا والهند ووصف لتركيب أجزاء السفينة وجريان الماء من البحر كلها بأسلوب شعري .

لذلك جمع احمد بن ماجد الملاح بين شخصية الملاح الماهر والأديب المثقف وكثيراً ما نراه في مؤلفاته يورد شواهد شعرية تتضمن النواحي التي أشار اليها فيما يتعلق بالبحر فمثلاً حين يتكلم عن منازل الكواكب والقمر يورد أشعاراً بشواهد تحوي أسماءها عند قدماء العرب فهي وسيلة للإرشاد ذو تعاليم من يريد الملاحة ، وكيف اتصل بالمستكشف البرتغالي فاسكوديكاما سنة (1497م) في نهاية القرن 15م [1] . ان دور العرب الريادي في البحر خلال هذه الفترة وما يذكر من روايات عن مصاحبة احمد بن ماجد الملاح لفاسكوديكاما لى الهند يعني إشارة واضحة لما وصل اليه العرب من تطور وتقدم في ركوب البحر ايضا تدل على دور العرب الريادي في الملاحة البحرية لان فاسكوديكاما كان يجهل الطريق الموصل بين ساحل أفريقيا الشرقي (موزنبيق) إلى الهند الرواية أمددتها كتب أجنبية وكتب عربية خلاصتها انه عام(1497م) كلف ملك البرتغال عمانوئيل الأول الرحالة البرتغالي فاسكوديكاما بالاكتشاف طريق الهند فخرج هذا بسفنه من لشبونة من البرتغال واجتاز سواحل أفريقيا الغربية حتى وصل رأس الرجاء الصالح هذا المكان كان دائماً منطقة تصطدم فيه السفن وتفرق او تضل الطريق لهيجان البحر ووجود الصخور واشتداد الرياح والذي فعله انه اكتشف طريق جديد غير ذلك الطريق القديم لذلك سمي

(1) شهاب ، احمد بن ماجد ، ص 67–76 .

برأس الرجاء الصالح اسم الصالح لمرور السفن بعد ان اجتاز الطريق القديم واتجه بسفنه شمالاً نحو الشمال مع سواحل شرق أفريقيا إلى ان وصل سواحل موزنبيق بعد ان عبر مضيق موزنبيق واكتشف جزيرة مدغشقر .

وخلال رحلته من لشبونة وحتى موزنبيق كان هدفه هو اكتشاف الطريق إلى الهند لان الطريق والرحلة إلى الهند أسرارها كان تحت سيطرة العرب منذ فترة ما قبل الإسلام بعد ان كان الرومان قد بذلوا جهداً كبيراً لاكتشاف سر الرياح الموسمية فحاول البرتغاليين اكتشاف طريق مباشر من البرتغال إلى الهند من دون المرور ببلاد العرب لكنه لم يستطع ان يستدل الطريق إلى الهند فطلب من احد الملوك الموجودين في المنطقة الملوك ان يرسل معه شخصاً يدله على الطريق فكان ان أرسل عنه كما تشير الروايات المعلم كانكا المقصود بذلك في الاسبانية معلم الملاحة الفلكية أي الشخص الخبير في الطرق الملاحية المستعين بالخرائط والنجوم والكواكب وهو احمد بن ماجد الملاح الذي أوصل فاسكوديكاما إلى الهند حتى مدينة كلكتا . الروايات الأخرى أوردت نفس المضمون ما عدا فيه بعض الاختلاف .

اما المؤرخ البرتغالي الآخر (باروش) فقال : ان فاسكودي التقى في مالندي الواقعة على الساحل الشرقي لأفريقيا بملاح مسلم يدعى المعلم (كانكا) وانه اطلع على ما يحمله من الخرائط والآلات البحرية ودله على طريق الهند وقاد سفنه إلى ميناء كلكتا وقد أعجب فاسكوديكاما من معلومات ذلك الرجل المسلم عندما أطلعه على مصور لجميع شواطئ الهند كما صورها الجغرافيون المسلمون بخلاف المصورات البرتغال خرائط التي يظهر فيها التشويش والاختلاط ، ثم اخرج فاسكوديكاما المسلم اصطرلاباً خشبياً واصطرلابات معدنية لقياس ارتفاع الشمس ، ولكن الرجل المسلم لم يظهر أي دهشة من رؤية هذه الآلات بل قال :-

ان الملاحين العرب في البحر الأحمر كانوا يستعملون آلات من المعادن وبأشكال مثلثة ومربعة لقياس ارتفاع الشمس وقال ان البحارة يبحرون مستعينين ببعض النجوم ولا يقيسون ارتفاع النجوم بالآلات التي مع فاسكوديكاما بل بآلات أخرى أخرجها لفاسكوديكاما فأعجب بها ورأى فاسكوديكاما في الربان العربي كنزاً ثميناً فرافقه إلى الهند وفي اقل من شهر وصل (كالكوتا) فأرسل المعلم (كانكا) ليخبر ملك البلاد بقدوم الحملة البرتغالية .

اما المؤرخون العرب فيقول قطب الدين النهرواني في كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني ان طائفة من الفرنج يركبون في سبتة في البحر (مضيق جبل طارق) ويلجون في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق احد جانبيه

جبل وبالجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفنهم ولا ينجر منهم احد ، واستمروا على ذلك مدة إلى ان خلص منهم (غراب) (سفينة صغيرة) إلى بحر الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى ان دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له احمد بن ماجد .

وكان احمد بن ماجد يهتم كثيراً بإعداد الربان او قائد السفينة باعتبارهم مسؤولين عن سلامة الأرواح والأموال في السفن التي يقودونها الى سفرة ناجحة وآمنة . لذلك اشترط على اختيار الملاح الماهر شروط منها :

1. ان يكون على مستوى أخلاقي رفيع .
2. ان يحصل على قدر من الفنون الملاحية وعلم الفلك يؤهله التعرف على طريقه في البحر ليلاً ونهاراً .
3. ان يواصل دراسته والحصول على التدريب على فنون البحر بشكل مستمر ويطور نفسه نحو الأفضل[1] .

اهتمام الغرب بالأدب الجغرافي العربي :

تأثر العلم الأوربي بالجغرافية العربية على أطوار مختلفة وبدرجات متفاوتة وفقاً للمستوى العام للثقافة ولحالة الاستغراب ، فمنذ ق (5هـ/11م) بدأت في اسبانيا ترجمة المصنفات العربية في الفلك والرياضيات الى اللغة اللاتينية وسرعان ما أصبحت أسماء (الخوريثما) أي الخوارزمي (الفراغانوس) أي الفرغاني و (الباتتفنيوس) أي البتاني معروفة لدى الجميع فقد تعرفت أوربا بفضل هذه الترجمات على الجغرافية الفلكية عند العرب .

ومن الأمور التي أثرت فيها النظريات الجغرافية العربية بشكل مباشر على التاريخ الأوربي في العصور الوسطى فيما يتعلق بالكارتوغرافيا فمارينو ساندو وهو احد الشخصيات الأوربية النشيطة في بداية ق 14م / 8هـ قد زود مصنفه عن الأراضي المقدسة بخارطة للعالم لتوضح فكرته المبتكرة التي توحي إلى محاصرة العالم الإسلامي حصاراً اقتصادياً وهذه الخارطة على هيئة دائرة مركزها أورشليم (القدس) ومبين عليها بوضوح بحران كبيران يتصلان بالبحر المحيط كما يظهر عليها ساحل أفريقيا ممتداً امتداداً بعيداً نحو الشرق فهي اذاً تكرار لجميع الخطوط الرئيسية المميزة لخارطة العالم في (أطلس الإسلام) مع اختلاف بسيط هو ان مركز الأخير ليس أورشليم بل مكة بالطبع .

---

(1) عبد العليم ، الملاحة وفنون البحار ص 145-146 .

كما بدأ العالم الأوربي اتصاله المباشر بالأحوال العربية اخذ الاهتمام بالجغرافية الوصفية يعادل الاهتمام بالجغرافية الفلكية وكان بوستل postell أول مستشرق يجتذبه الجغرافي العربي ابو الفدا كما ان أول ذكر لياقوت الحموي يرد في محاضرته بتاريخ 1702/12/20 يعقوب جيوفوفيس وفي عام 1592 طبع بمطبعة المديتشي medici المشهورة أول نص في الجغرافية الوصفية وهو كتاب اكتسب بالتالي حديثاً عريضاً اعني بذلك مصنف الجغرافي العربي المغربي المشهور الإدريسي الذي عاش في ق6هـ /12م .

وقد حالف التوفيق بصورة اكبر طبع أول كتاب في الجغرافية الفلكية وقد اضطلع بهذه المهمة العالم الهولندي الشهير في القرن السابع عشر (ياكوب غوليس Jacob Golius) 1596–1667 فالطبعة التي قام بتحضيرها للجداول الفلكية للفرغاني ق 9 م المشهور في أوربا باسم الفرغاتوس ظهرت مع ترجمته اللاتينية في عام 1669 م أي بعد وفاته وبهذا وضعت أول لبنة في أساس دراسة الأدب الجغرافي اعتماداً على مصادره الأصلية .

وقد سار التقدم بصورة بطيئة ، ففي ق 18م باجمعه لم يتعرف العالم الأوربي إلا على ثلاثة مؤلفين فقط وهم (ابو الفرات / 1331م) (وابن الوردي ت / 1446م) اللذان اهتما بالجغرافية العامة ، اما الثالث وهو عبد اللطيف البغدادي ت / 1231م) فقد اشتهر بوصفه لمصر وفي بداية ق 19م ظهر بحثان ممتازان في دراسة الأدب الجغرافي لا يزالا إلى اليوم محتفظان بقيمتهما ،احدهما ترجمة وصف رحلة عبد اللطيف البغدادي وهي من عمل المستشرق الفرنسي سلفستروي ساسي (1810م) والثاني ترجمة المستشرق الروسي فرين لوسال لابن فضلان (1823) وكلا البحثين يمكن اعتبارهما حجر الزاوية للدراسة العلمية للأدب الجغرافي العربي .

ومنذ منتصف ق 19م اشتدت الحاجة إلى مصنف عام يجمع شتات ما عرف حتى تلك اللحظة . فقد نال أهمية غير عادية كتاب رينود Reinond 18481 الذي أراد به في الأصل وضع مقدمة لطبعة علمية تامة كجغرافيا ابي الفداء ولكن البحث ما لبث وان استفاض وعاد هو وموضوعه واتخذ صورة عرض عام مستقل لتطور العلم والأدب الجغرافي في اللغات الثلاث الرئيسية للشرق الإسلامي ويمثل الكتاب مسطراً أكثر من 450 صفحة يتضح من خلالها معرفة المؤلف الجيدة بالجغرافية الوطنية والفلكية ويقسم المصنف إلى عدد الأبحاث السابقة المستقلة للمؤلف نفسه .

وفي النصف الثاني من ق 19م تحقق في وقت واحد نشر بحثان ضخمان أصبحا بالتالي قاعدة متينة لدراسة الأدب الجغرافي العربي اعتماداً على أشهر مؤلفيه بين القرنين 10–13م فبين عامي 1866–1876 نشر المعجم الجغرافي لياقوت الحموي في ستة أجزاء وهو أهم مرجع جغرافي وفي سنة 1870 بدأ العلاّمة الهولندي (دي خوية) بتنفيذ فكرته بنشر سلسلة (مكتبة

الجغرافيين العرب) وهي تتكون من تسع مجلدات وتضم في صفحاتها مصنفات مؤلفي عهد الازدهار الأدب الجغرافي العربي في القرنين التاسع والعاشر .

وفي القرنين 19–20م ظهر أسلوب جديد في دراسة المادة الجغرافية العربية ويهتم بجمع المادة المتعلقة بكل قطر ودراستها دراسة نقدية مثل (اماري) عن صقلية ومدنيكوف عن فلسطين وتوليو عن الإدريسي كما وجدت قاعدة رصينة لدراسة تاريخ الكارتوغرافيا العربية مثل مؤلفات (ليليول) 1850 و (ميلز) وفي عام 1842 حاول فستنفلد وضع موجز ببلوغرافي للأدب الجغرافي العربي معتمداً في ذلك على حاجي خليفة ذاكراً أسماء 126 مؤلفاً .

وفي سنة 1858 ظهر كتاب (نظرة إلى الأدب الجغرافي عند الشعوب الإسلامية) للعلاّمة الدانماركي بيرن ويشمل إثبات لأسماء الجغرافيين العرب ويقدم تفاصيل عنهم معتمداً على المصادر الأصلية ، كما يعرض تصورات العرب عن العالم وهو عرض موجز لنظرية شكل الأرض وأقسامها وتقسيم المعمورة الى سبعة أقاليم كما يوضع نظرية العرب في تقسيم البحار على الأرض .

كما نشر العالم الفرنسي ففيان دي سان مارتان عام 1867 مقالاً عن (جغرافيا العصور الوسطى في الشرق منذ القرن السابع إلى القرن الخامس عشر) وذلك ضمن تاريخ العام للجغرافيا ، وقد افرد المستشرق الفرنسي (كارا دي فو) مائة صفحة للجغرافيين والرحالة العرب وذلك في الجزء الثاني من مؤلفه الذائع الصيت(مفكروا الإسلام) الذي يقع في خمس أجزاء .

الملاحق
نماذج من الخرائط التاريخيـــــــــــة

London Ur 23544

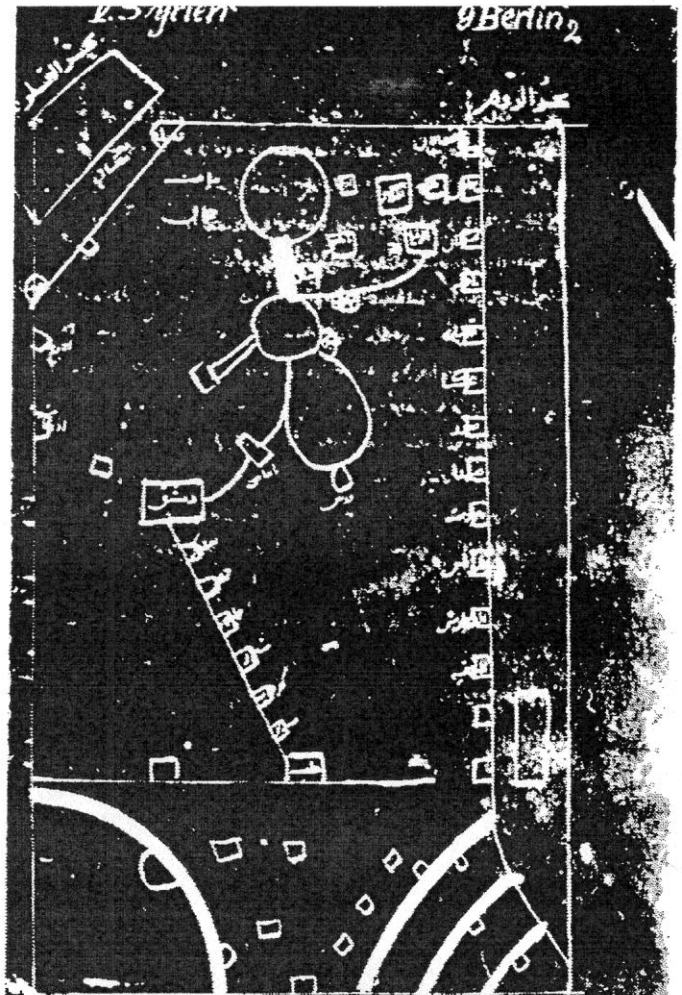
9 Berlin 2

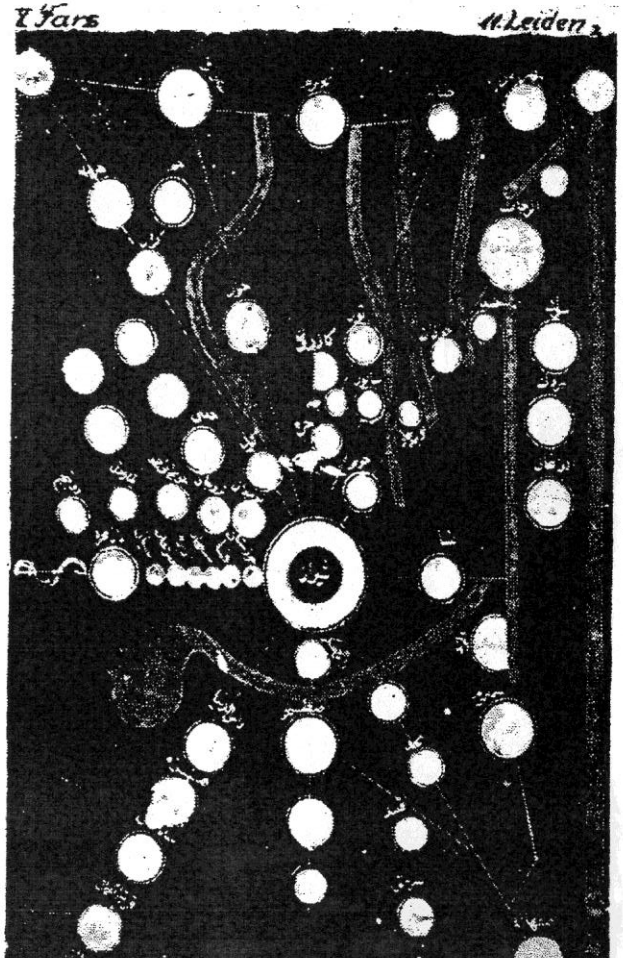
11 Leiden 2

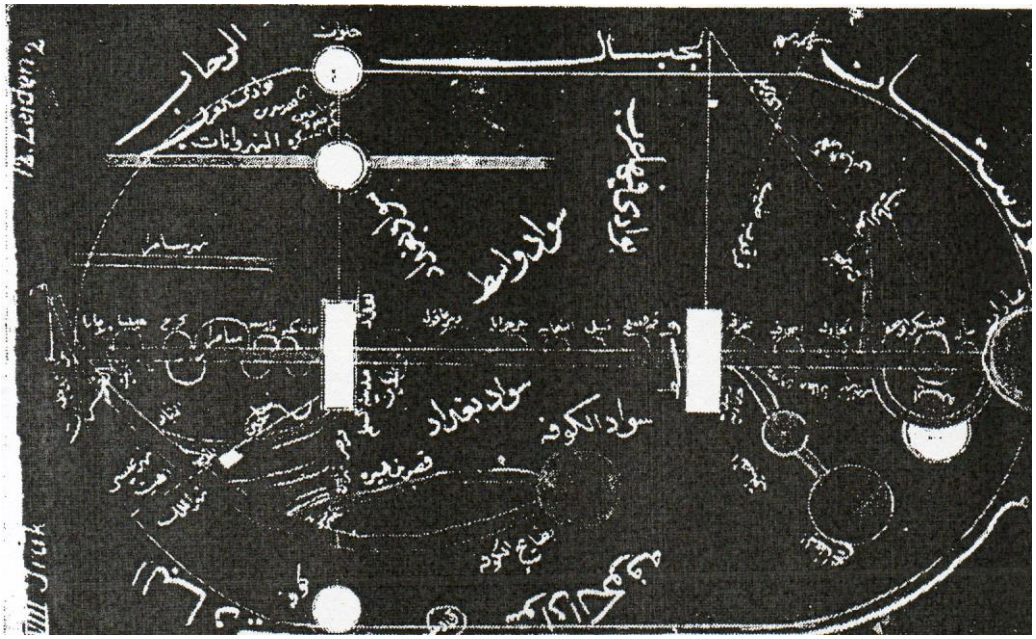
الرحاب
الجبال
سواد واسط
سواد بغداد
سواد الكوفة

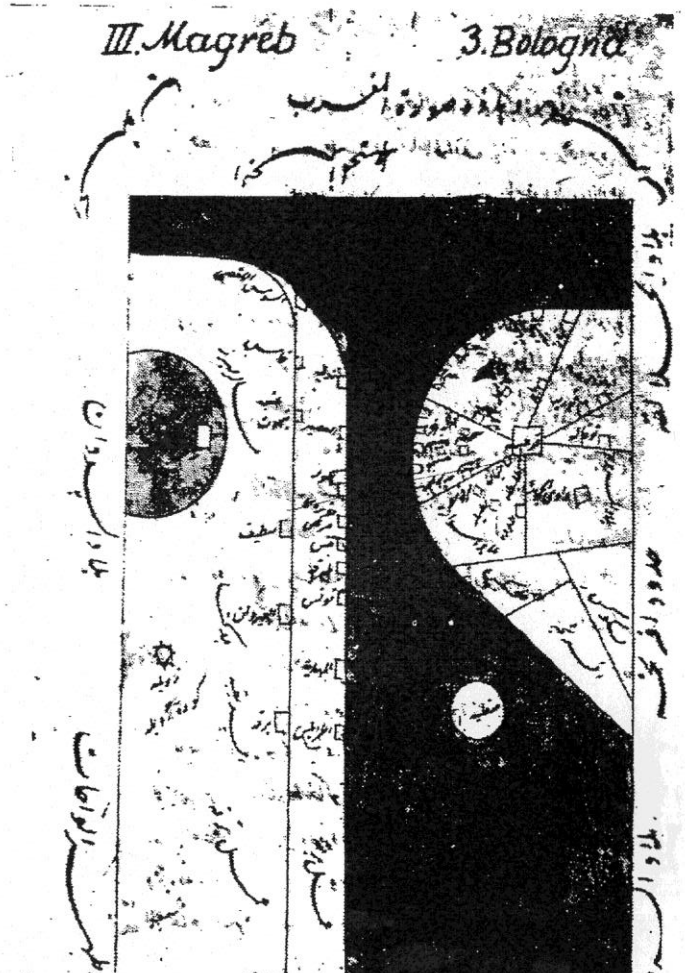
III. Magreb
3. Bologna

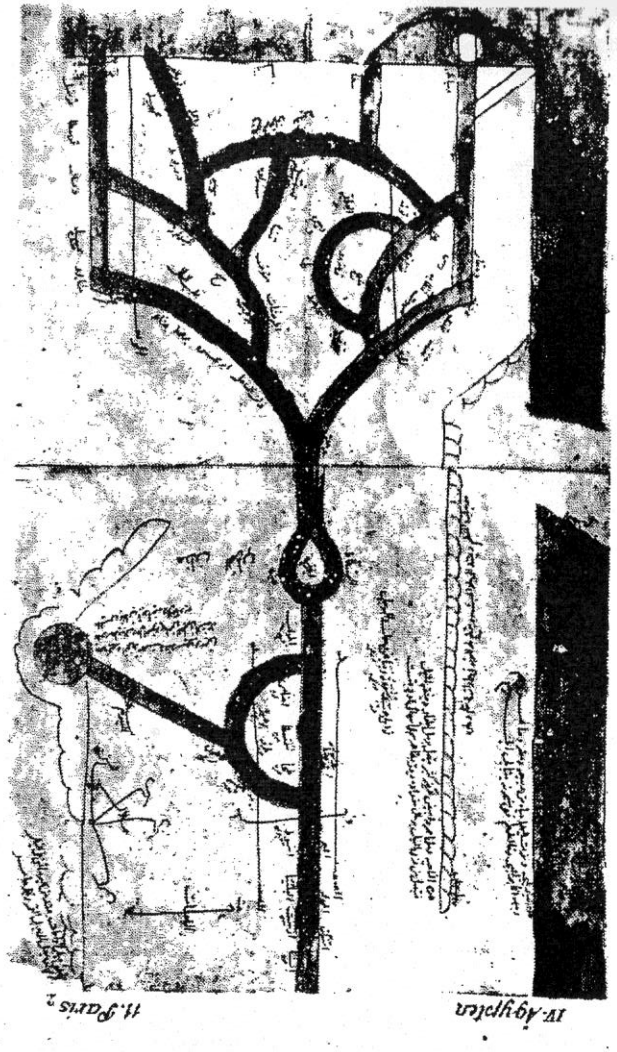

مصر (للاصطخري)

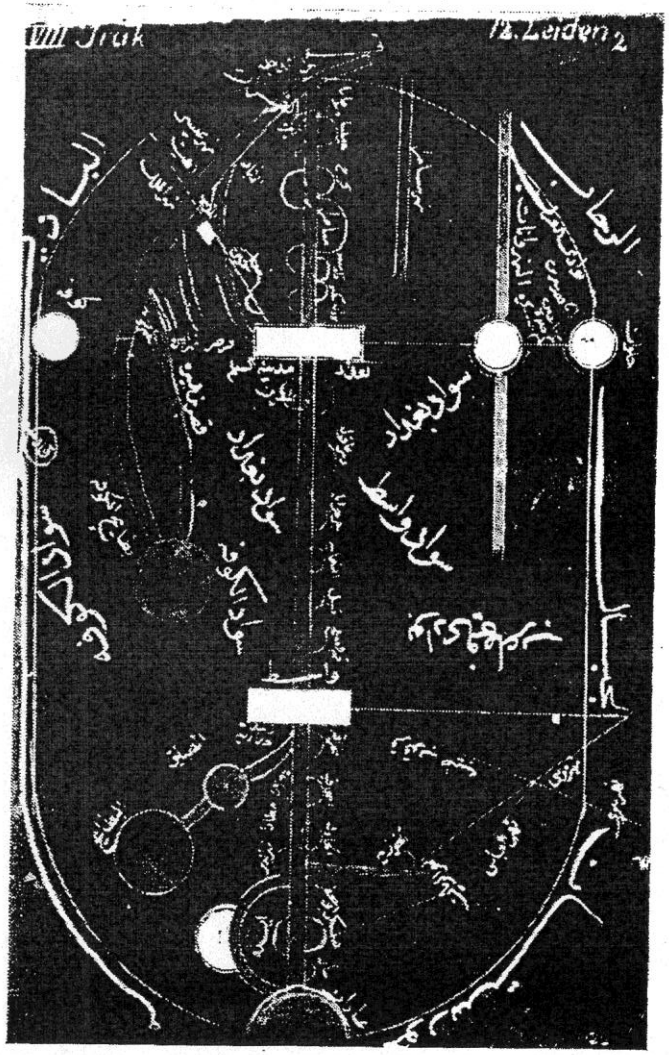

العراق

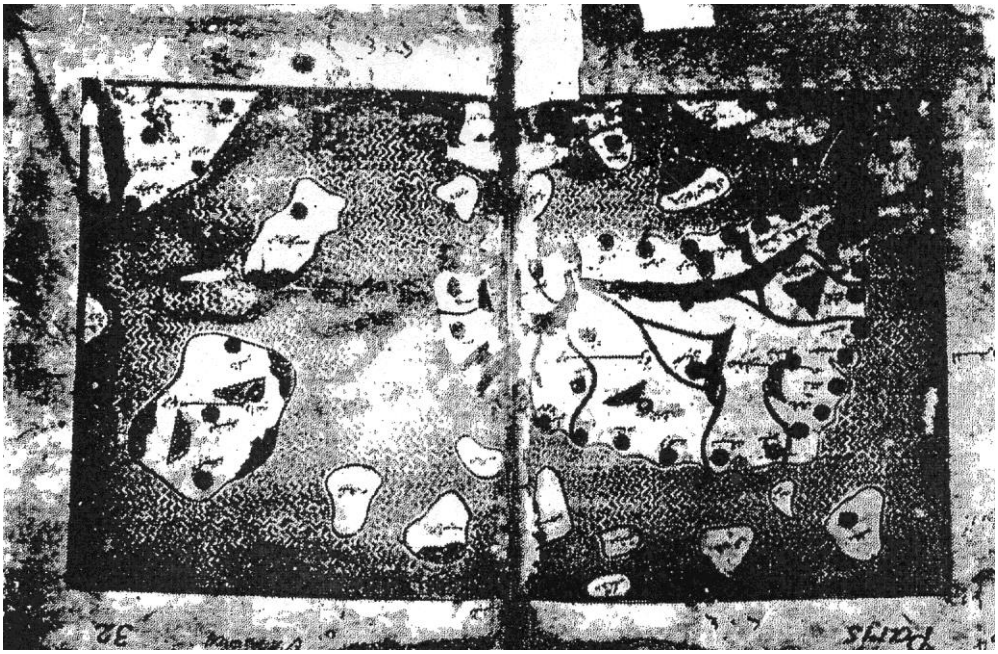

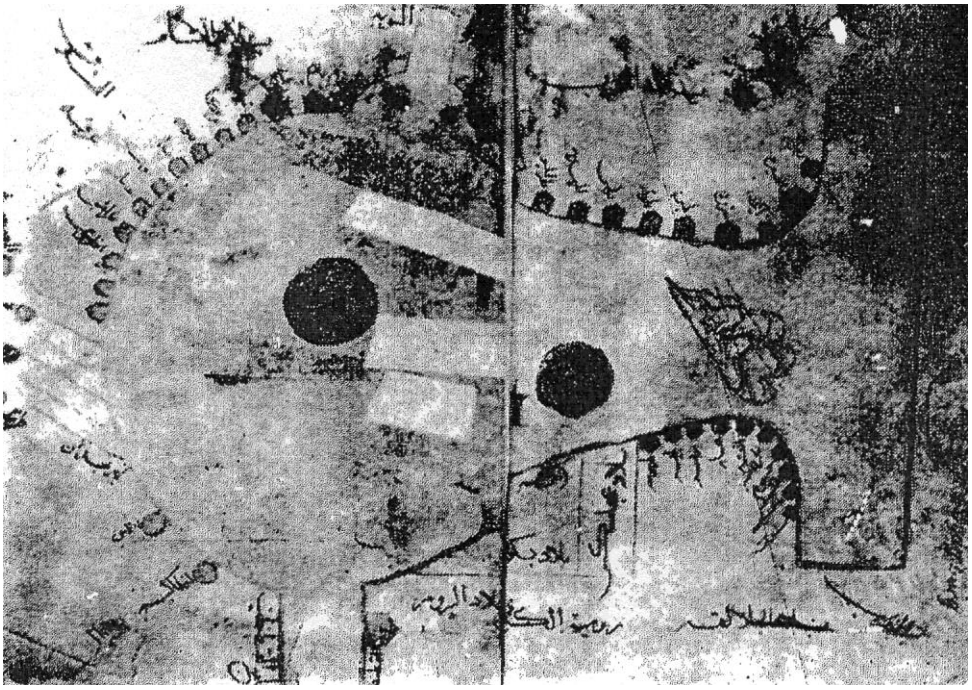

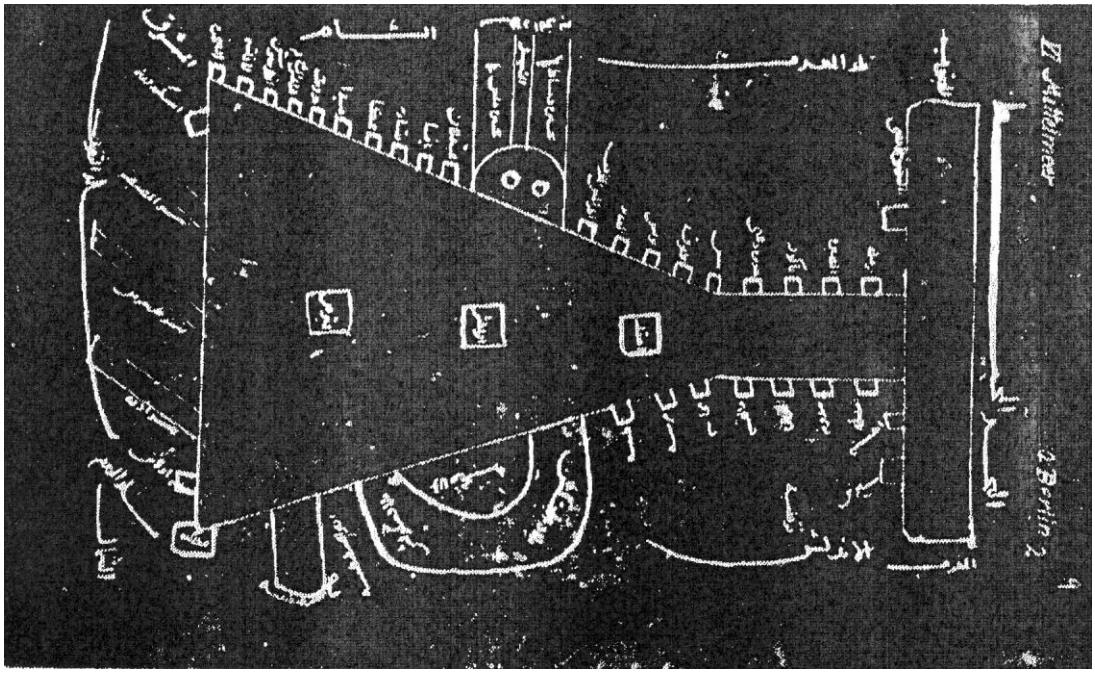

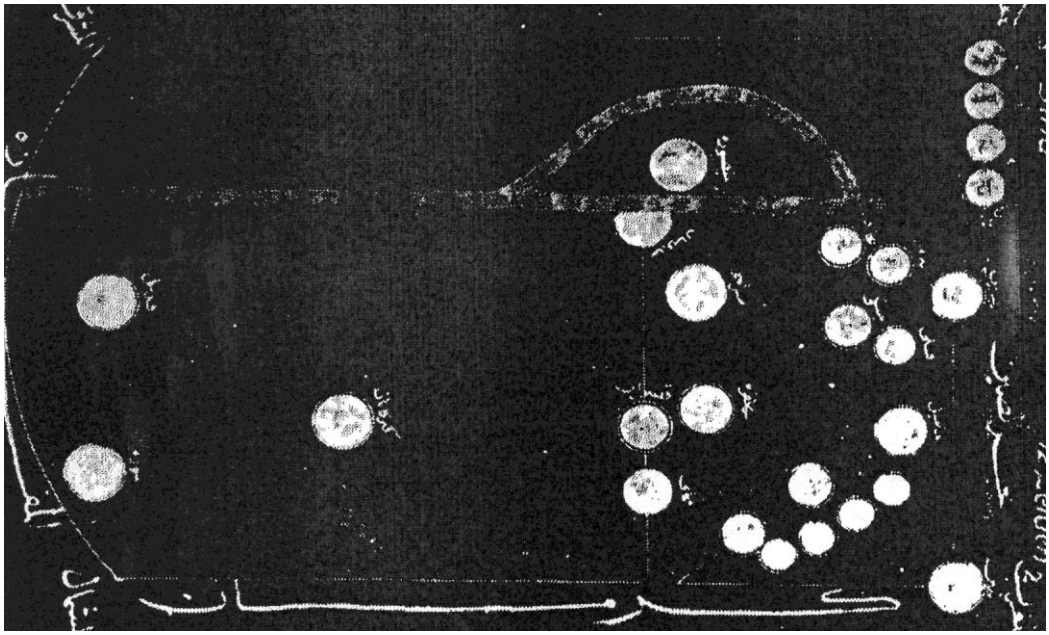

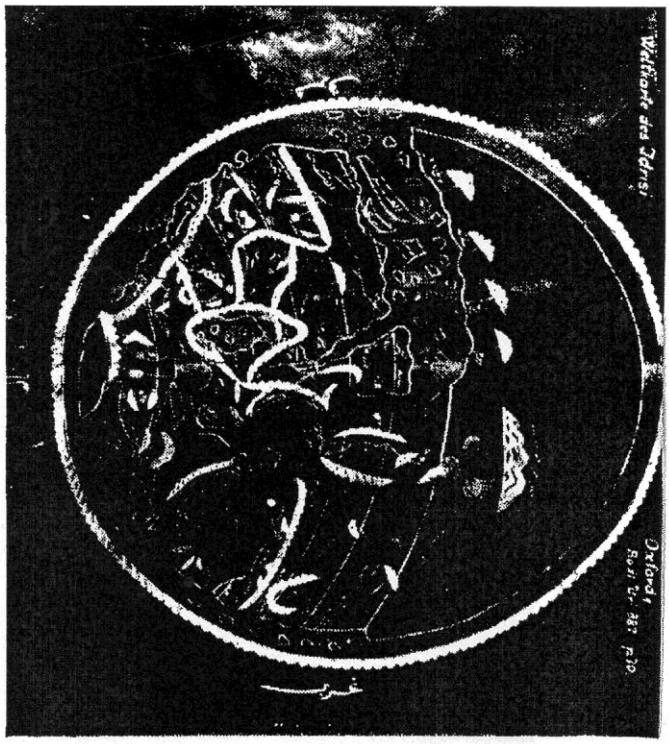

خارطة العالم (الادريسي)

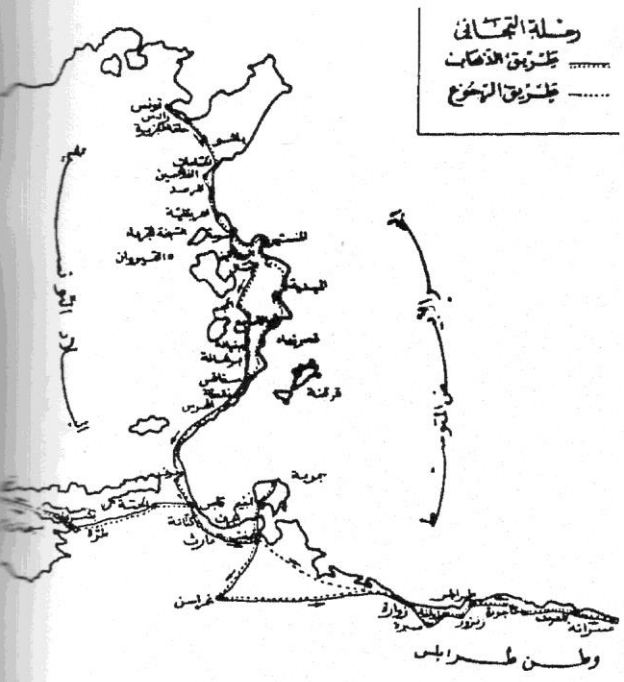

رحلة التجاني

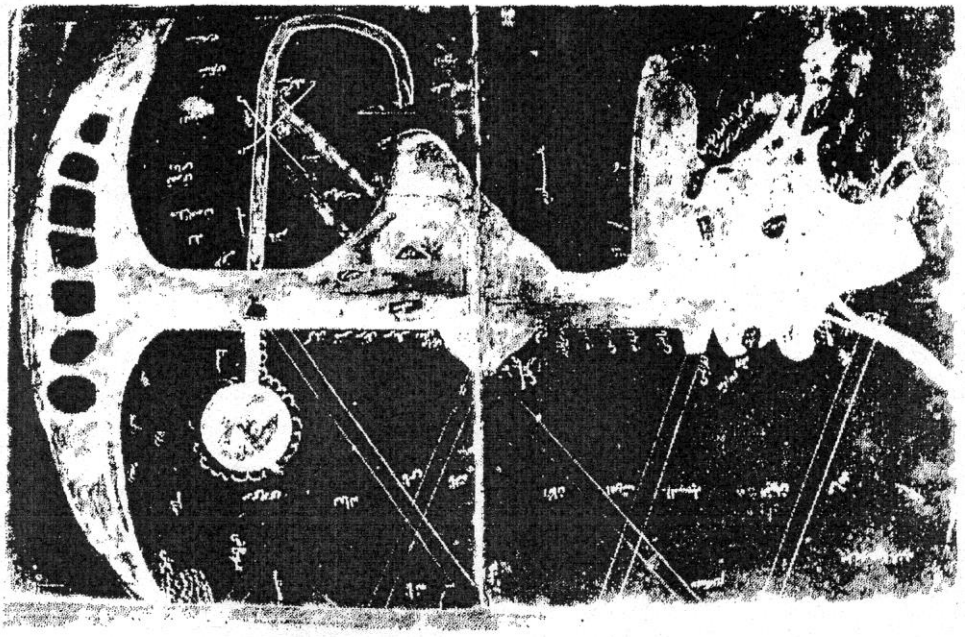

حوض البحر الابيض المتوسط (لابن سعيد)

XIII. Visible Part of the Moon

XIV. Kasp Meer

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

المصادر :

ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله الطنجي (ت 779هـ/1377م).

1- رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار) ، تحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2007 .

البيروني ، محمد بن احمد(440هـ/1048م) .

2- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، .1958

3- الاثار الباقية عن القرون الخالية ، وضع حواشيه خليل عمران منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2000.

ابن جبير ، ابي الحسن محمد بن احمد (ت 614هـ/ 1217م).

4- رحلة ابن جبير (رسالة اعتبار الناسك في الآثار الكريمة والمناسك)، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، (د.ت).

الحميري ، محمد عبد المنعم(710هـ/1310م) .

5- صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ، 1937.

ابن حوقل ، ابو القاسم محمد بن علي (ت 367هـ/ 977م).

6- صورة الأرض ، مطبعة دار الحياة ، بيروت (د.ت) .

ابن خرداذبة ، ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ/912م) .

7- المسالك والممالك ، دار صادر ، بيروت عن طبعة ليدن ، 1886 .

ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (681هـ/1282م) .

8- وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1977.

ابن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1406م)
9- المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ت) .

سهراب
10- كتاب عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة ،تحقيق هابس فون مزيك ، مطبعة ادولف هولزهوزن ، فيينا، 1929 .

الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد ،(505هـ/1111م)
11- احياء علوم الدين ، مكتبة عبد الوكيل الدروبي ، دمشق ، (د.ت).

ابن الفرضي، ابي الوليد عبد الله بن محمد(403هـ/1012م)
12- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988 .

ابن فضلان ، احمد بن فضلان بن العباس (ت 310هـ/ 922م) .
13- رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، تحقيق سامي الدهان ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، 1959 .
المسعودي ، علي بن الحسين (346هـ/957م) .
14- أخبار الزمان ، تحقيق عبد الحميد احمد حنفي ، مطبعة عبد الحميد ، القاهرة ، 1938 .
15- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، 1973 .

المقدسي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد (ت 385هـ/995م) .
16- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق ممد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 .

ابن النديم، ابي الفرج محمد بن ابي يعقوب ،(380 هـ /990م)
17- الفهرست ، تحقيق يوسف علي الطويل واحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2010.

المراجع :

اندريه مايكل

1- جغرافية دار الإسلام البشرية ، ترجمة إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،دمشق ،1983.

بالنثيا ،آنخل جونثالث

2- تاريخ الفكر الأندلسي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2008.

بروفنسال ، ليفي

3- تاريخ اسبانيا الإسلامية ، ترجمة علي البمبي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2002 .

حسين ، محمد حسني

4- أدب الرحلة عند العرب ، دار الأندلس ، بيروت ، 1983.

حميدة ، عبد الرحمن

5- أعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ، 1980 .

حربي عباس عطيتو محمود وحسان حلاق

6- العلوم عند العرب أصولها وملامحها الحضارية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1995

زيادة ، نقولا

7- الجغرافية والرحلات عند العرب ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1962 .

خصباك ، شاكر

9- الجغرافية عند العرب ، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1986 .

الدفاع ، علي بن عبد الله
9- رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض ، 1993 .

الراوي ، حبيب
10- شكل الأرض، دراسة لتطور الفكر عند العرب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1963 .

عبد العليم ، أنور
11- الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة،13، الكويت ، 1990 .
العمد ، إحسان صدقي
12- الحجاج بن يوسف الثقفي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1981 .

سالم ، السيد عبد العزيز واحمد مختار العبادي
13- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1969.
14- بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1991.
سيد مظفر الدين
15- التاريخ الجغرافي للقرآن ، ترجمة عبد الشافي غنيم عبد القادر ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1929

شهاب ، حسن صالح
16- احمد بن ماجد، مركز الدراسات والوثائق، الإمارات العربية، رأس الخيمة ، 2001 .

الفندي ، جمال
17- الجغرافية عند المسلمين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 .

فهيم ، حسين محمد
18- أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، 138 ، الكويت ، 1990 .

كلوذييه ، رينيه وعبد الرحمن حميدة
19- تطور الفكر الجغرافي ، دار الفكر ، دمشق ، 198 .

كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش
20- تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، موسكو ، 1957 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1963 .

المياح ، عبد الرحمن رشك
21- أوربا في كتب البلدانيين العرب المسلمين ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 2008 .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	1
الفصل الأول : اصول الادب الجغرافي عند الشعوب	3
المصطلح الجغرافي	4
تعريف الجغرافية ومحتواها	4
منهج البحث في الجغرافية	4
بدايات الفكر الجغرافي عند الإنسان القديم	6
الجغرافية عند البابليين	6
الصينيون والفكر الجغرافي	7
المصريون القدماء	8
الكريتيون	9
الفينيقيون	9
علم الجغرافية عند اليونان :	10
1- الجغرافية الفلكية	11
2- الجغرافية الوصفية الإقليمية	11
الإغريق	11
فتوحات الاسكندر المقدوني	12
الجغرافية عند الشعوب الأخرى	13
الأقاليم السبعة	14
الفصل الثاني : الجغرافية عند العرب المسلمين	15
المعارف الجغرافية عند العرب قبل الإسلام	16
عوامل ظهور الجغرافية عند العرب المسلمين	19
المدرسة العربية اليونانية	20
المدرسة العربية (البلخية)	21
المعاجم الجغرافية العربية	22
مفاهيم العرب حول شكل الأرض وحركتها	23
الرحلات عند العرب وآدابها :	23

1- الرحلات الطوعية	27
2- الرحلات التكليفية	28
آداب الرحلة	29
أنواع الجغرافية عند العرب	31
الجغرافية الفلكية والرياضية	31
الخوارزمي	33
الجغرافية الوصفية الاقليمية	34
الجغرافية الاقتصادية	36
الجغرافية البشرية	37
ابن خلدون	40
الفصل الثالث : رسم الخرائط عند العرب المسلمين	**42**
فن رسم الخرائط (المصورات الجغرافية)	43
رسم الخرائط عند المسلمين	43
الخرائط العربية الفلكية	43
الخرائط المأمونية	43
الخارطة الادريسية	44
الخرائط الإقليمية	44
عوامل تطور فن رسم الخرائط :	45
1- العامل الاقتصادي	45
2- العامل السياسي	45
3- العامل الإداري (نظام البريد)	45
قواعد وأصول الخرائط العربية	47
الإدريسي	48
الفصل الرابع : ملامح الفكر الجغرافي العربي الاسلامي	**50**
أهم الجغرافيون العرب ومصنفاتهم	51
ابن خرداذبة	51
ابن فضلان	51
المسعودي	54
عبد اللطيف البغدادي	56

السائح الهروي	57
الفكر الجغرافي عند المغاربة	61
المآخذ والانتقادات التي وجهت إلى الجغرافيين العرب	62
الفصل الخامس : الملاحة وتطور الفكر الجغرافي	**64**
الرحلات البحرية	65
السفر والحج	66
عوامل تطوير البحرية الإسلامية	67
آلات الملاحة عند العرب	69
الاصطرلاب	69
البيروني	71
دور التجارة في الاستكشافات الجغرافية	72
الإضافات البحرية العربية في الملاحة	75
اثر الفكر الجغرافي العربي على أوربا	76
احمد بن ماجد	76
اهتمام الغرب بالأدب الجغرافي العربي	79
الملحق : نماذج من الخرائط التاريخية	82
قائمة المصادر والمراجع	95
المحتويات	101